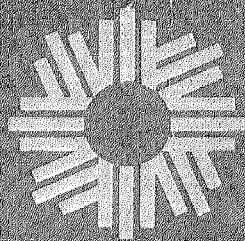


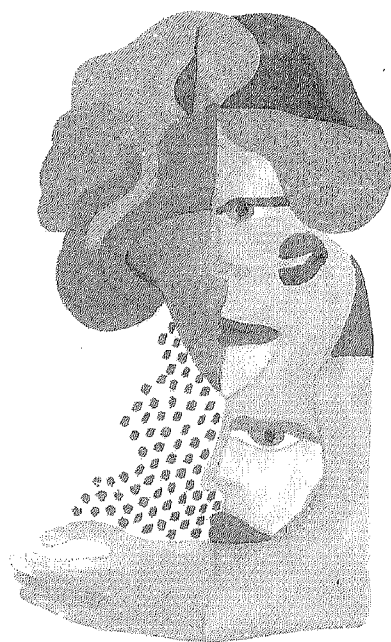
المواجفة



رفاعة رافع الطمطاوي

تخلص الأبريز في تخلص باريز

< ٢ >



تنوير

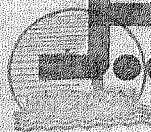
المواجفة

رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الأبريز في تليخيص باريز

(٢)

التنوير



General Organization of the Alexandria Library (GAL)

المنظمة العامة للمكتبات الإسكندرية

١٩٩٣

٢٥٥٩

الفصل الثاني

(فى الكلام على أهل باريس)

اعلم أن الباريزيين يخلصون من بين كثير من النصارى بذلك العقل ، ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات ، وليسوا مثل النصارى القبطية ، فى أنهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشئ والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل انسان على قدر حاله ، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة .

وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يستدع فى فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ما ابتدعه غيره . ومما يعينهم على ذلك زيادة عن الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمري رأيت المرء بعد زواله حدينا بما قد كان يأتى ويصنع
فحيث الفنى لا بد يذكر بعده فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد :

وانما المرء حديث بهمه فكن حديثنا حسنا لمن وعى

وقيل لاسكندر : لو استكثرت من النساء كثر ولدك ، وطاب
بهم ذكرك ، فقال : دوام الذكر في حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن
لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء .

ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء
الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور ، وخصوصا في
أمر اللبس ، فانه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن
عادة في التزيى ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملابسهم بالكلية ،
بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، مثلا : لا يغيرون لبس (البرنيطة)
ولا ينتقلون منها الى العمامة ، وانما هم تارة يلبسون (البرنيطة)
على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر ، سواء في
صورتها أو لونها ، وهكذا .

ومن طباعهم المهارة والخفة ، فان صاحب المقام قد تجده يجرى
في السكة كالصغير ، ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل
الانسان منهم عن الفرح الى الحزن وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل
وبالعكس ، حتى ان الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة أمور
متضادة ، وهذا كله في الأمور الغير المهمة ، وأما في الأمور المهمة
فأراؤهم في السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ،
ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم الى أوطانهم يحبون الأسفار ،
فقد يمكنون السنين العديدة والمسدة المدينة ، طوافين بين المشرق
والمغرب ، حتى انهم قد يلقون أنفسهم في المهالك ، لمصلحة نعود على
أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول الحاجرى :

كل المنازل والبلاد عزيزة عندي ولا كمواطني وبلادى

وقال آخر :

نفل فؤادكما استطعت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم ، خصوصا
اذا كان الغريب منجملا بالثياب النفيسة ، وانما يحملهم على ذلك
الرغبة والتشوف الى السؤال عن أحوال البلاد ، وعوائد أهلها ،
ليظفروا بمقصدهم فى الحضر والسفر ، وقد جسرت عادة النفوس
الى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر
وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ،
الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون اسنعارته لا هيبته الا
اذا وثقوا بالمكافأة ، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، وقد
ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا « مختصر السير والعيود فى ذكر
الضيافة » وفى الواقع ، حقيقة السبب فى ذلك هو أن الكرم
فى العرب .

ومن أصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم
اهمالهم أشغالهم أبدا ، فانهم لا يكلون من الأشغال سواء الغنى
والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول : ان الليل والنهار يعملان فىك
فاعمل فىهما .

ومن المركوز فى طبعم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحقد ،
فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم : أخلص قلوبا من الغنم عند
ذبحها ، وان كانوا عند الغضب أشد افتراسا من الثمور ، فان
الانسان منهم اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة ، فقل أن يفوت
زمن يسير من غير أن يقتل انسان نفسه خصوصا من داء الفقر
أو العشق .

ومن طباعهم الغالبة : وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وفلة الخيانة .
ومن كلام بعض الحكماء : المواعيد شباك الكرام ، يصطادون بها
محامد الأحرار . وقال آخر : كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداعة
الديانة . وقال آخر : الشكر وكاء النعمة ، والوفاء به صلاح
تعقبى . وقيل : وعد الكريم ، ألزم من دين الغريم . وقال بعضهم
الخيانات تؤذى الأمانات .

ومن طباعهم الغالبة : الصدق ، ويعتنون كثيرا بالمرءة
الانسانية ، قال بعضهم فى مدحها : المرءة اسم جامع للمحاسن
كلها .

ومن الصفات التى يقبح وصف الانسان بها عندهم : كفر
النعيم ، مثل غيرهم . فيرون أن شكر المنعم واجب ، وأظن أن جميع
الأمم ترى ذلك - وان كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد ، فهو
خروج عن الطبع ، فهى كسفة الوالد وبر الولد ، فانهما قد يتخلفان
فى بعض الأفراد ، مع أنهما صفتان جبليتان ، عند سائر الأمم
والمثل . ومما قيل فى ذلك ، وهو أحسن ما قيل مع ما فيه من
الاستطراد :

هب البعث لم يأتنا نذره وأن لظى النار لم تضرم
أليس بكاف لذى فكرة حياء المسيء من المنعم

ويقال ان أبا بكر الخوارزمى الشاعر المشهور قصد صاحب
بن عباد فأحسن زوله وأكرمه وأقام فى نعمته مدة ، ثم حين ارتحاله
كتب بيتين وجعلهما فى مكان حيث يجلس صاحب وهما :

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت كفاء بالوجود حتى أحجل الديما
فانها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمي :

أقول لركب من خراسان أقبلوا أمات حوارزمبكم ؟ قيل لى : نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره : الألعن الرحمن من يكفر النعم !

وهذا بخلاف أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني من أولاد المأمون ، وهو شاعر محسن أقبل على الصاحب بن عباد ، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الاذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولى فى كل جارحة فم بسكرك يحوى منطلقا أربا
انى لأهوى مقامى فى ذراك كما بهوى يمينك فى العاقين أن تهبا
لكن لسانى يهوى السير عنك لأن يطبق الأرض مدحا فىك منتخبيا
أظننى فت أهلى والأنام همو اذا نرحلت عن مغناك مغربيا

ومن خصالهم أيضا : صرف الأموال فى حظوظ النفس ، والشهوات الشيطانية ، واللهو واللعب ، فانهم مسرقون غاية السرف .

ثم ان الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهن سواء كن جميلات (١) أم لا . قال بعضهم : ان النساء عند الهمل معدنات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمثلة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين ، قال الشاعر :

عص النساء فتلك الطاعة الحسنه فان يسود فتى يعطى النساء سنه
يعقنه عن كثير من فضائله ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

ولا يظن الافرنج بنسائهم ظننا سينا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فان الانسان ، ولو من أعيانهم ، قد يثبت

(١) الأصل : « جمالات » .

له فجور زوجته ، فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر .
والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب اقامة دعوى شرعية ومرافعة
ينبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رهوس الأشهاد ، تملوب
فيها الذرية بالفضيحة وان كانت يدون لعان ، ولا تعرض للأولاد .
وهذا يقع كثيرا في العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس
المرافعة الخاص والعام . فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغي
الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك الا سيئا بالنسا ان كنت من أهل الفطن
مارمى الانسان في مهلكة قسط الا ظنه الظن الحسن

ومن كلام بعض العرب العرباء خطابا لزوجته :

ان امرأ غره منكن واحدة بعدى وبعديك فى الدنيا لمغرور

ومن الأمور المستحسنة في طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع
العرب : عدم ميلهم الى الأحداث ، والنشيب فيهم أصلا ، فهذا أمر
منسى الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، فمن محاسن لسانهم
وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه ، فلا يحسن فى اللغة
الفرنساوية قول الرجل : عشقت غلاما فان هذا يكون من الكلام
المنبوذ المشكل ، فلذلك اذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقطب
الكلام الى وجه آخر ، فيقول فى ترجمة تلك الجملة عشقت غلامه ،
أو ذاتا ، ليتخلص من ذلك فانهم يرون هذا من فساد الأخلاق .
والحق معهم . وذلك أن أحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من
الخواص يميل بها اليه كخاصة المغناطيس فى جذب الحديد مثلا ،
وكخاصة الكهربا فى جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فاذا اتحد الجنس
انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية . وهذا الأمر عندهم
من أشد الفواحش ، حتى انه قلما ذكروه صريحا فى كتبهم بل
يكنون عنه بما أمكن ، ولا يسمع التحدث به أصلا ، ويعجبني قول
الشيخ عباس اليمنى :

كلفت بسعدى والرياب وزينب
ولم أعتبر آس العذار ولامه (١)

ولا اخترت نسيبياً بأمرد مذهبياً
وان ذم طبعى من يراه ولامه (٢)

وما حسنه عندى سوى فى عجاجة
وحمل فناه كالتشهاب ولامه (٣)

ويغشى سعي الحرب ليس يصده
حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه (٤)

ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم ،
وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة بمثل المصاحبة
والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنسية :
لا تغتر بآباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على
عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها . انتهى . كيف والزنا عندهم من
العيوب والرذائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصا فى حق غير
المتزوج ، فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر
بامرأة (١) ، ولا تنق بمال وان كثر ، وقال آخر : النساء حباتل
الشیطان ، وقال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ، ولا تكن جزوعا اذا بانث فسوف تبين
فان هى أعطتك الليان فانها لآخر من طلابها ستلين
وان حلفت لاينقض الثأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

(١) الآس : الريحان . والعذار : الخد ، ولامه : اسداده .

(٢) لام هنا بمعنى : عدل .

(٣) اللام مسهل اللام : جمع لامة ، وهى الدرع .

(٤) معه : اسم فعل أمر بمعنى أترك .

وبالجملة فهذه المدينة ، كباقي مدن فرنسا وبلاد الأفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات ، وان كانت مدينة « باريس » من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية . وأثينة فرنساوية وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة أى مدينة حكماء اليونان ، ثم رأيت بعض أهل الأدب من فرنساوية قال ما معناه : ان الباريزيين أسبه الناس بأهل أثينة ، أو هم أثينيو هذا الزمان ، فان عقولهم رومانية ، وطباعهم يونانية . انتهى .

وفد أسلفنا أن فرنساوية من الفرق التي نعتبر التحسين والتقييح العقليين وأقول هنا انهم ينكرون خوارق العادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا ، وأن الأديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير ، واجتناب ضده ، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسد الأديان ، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية .

ومن عقائدهم القبيحة قولهم : ان عقول حكمائهم وطبائعيهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها .

ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم العاقل من يصدق بالقضاء ، ويأخذ بالحزم في سائر الأشياء وان كان لا ينبغي للانسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فان من الأمثال التي سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير ، ومن كلام بعضهم اذا وقعت المجادلة فالسكوت أفضل من الكلام ، واذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير .

ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ، ونظمهم نظاما عجيبا ، فرغ منه ثم لا يزال يلاحظهم بصفة له تعالى ، تسمى صفة

العناية والحفظ ، تتعلق بالممكنات اجمالاً ، بمعنى أنها تمنعها عن
خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم في غير هذا المحل .

ثم ان لون أهل « باريس » البياض المشرب بالحمرة ، وقل
وجود السمرة في أهلها المتأصلين بها، وانما ندر ذلك لأنهم لا يزوجون
عادة الزنجية للأبيض أو بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط في
اللون . حتى لا يكون عندهم ابن أمة . قال الشاعر :

في الهند طير ناطق سبحانه مول ألهمه
يقول في تغريده : ابن الأمه ما الأمه
بل لا يعدون أنه قد يكون للزنج جمال أصلا ، بل غيره عندهم
من صفات القبح فليس لهم في المحبة مذهبان ، ولا يحسن عندهم قول
الشاعر في غلام :

لك وجه كأن بناني خطت به بلفظ تمله آمالي
فيه معنى من البسور ، ولكن نفضت صبغها عليه الليالي
لم يشك السواد بل زدت حسنا انما يلبس السواد الموالى
بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر :

ألا ان عندي عاشق السمرغالط وان الملاح البيض أبهى وأبهج
واني لأهوى كل بيضاء غادة يضى لها وجه وثغر مفلج
وحسبي أنى أتبع الحق في الهوى ولا شك أن الحق أبيض أبلج
على أنه لا يحسن عندهم الفرنسية استخدام جارية سوداء في
الطبخ ونحوه ، لما ركز في أذهانهم أن السود عارون عن النظافة
اللازمة .

ونساء الفرنسية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسأيرة
والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال في المنتزهات ،

وربما حدث التعارف بينهم وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهم ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصرى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى (البسات) والمراقص الآتى ذكرها ، ويحسن قول بعضهم (شعر) :

والراقصات وقد مالت ذوائبها على خصور كأوساط الزنابير
يخفى الردى سقمها عنا فيفضحها عقد البنود (١) وشدات الزنابير

ومما قيل : ان « باريس » جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل . وذلك أن النساء بها منعمات ، سواء بمالهن أو بجمالهن .

وأما الرجال فانهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فان الانسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فانها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض « باريس » خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة ، فان (العرجى) يجهده خيله ليوصلها الى مقصدها عاجلا ، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة .

وحيث ان باريس من بلاد الفرنسيس ، فمعلوم أن لسان هلمها هو اللسان الفرنساوى . ولنذكر هنا نبذة من ذلك فتقول : اعلم أن اللسان الفرنساوى من الافرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية يعنى قداما الفرنسيس ، ثم كمل من اللغة اللاطينية ، وأضيف اليه شئ من اللغة اليونانية النيمساوية ويسير من لغة الصقالية وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها . وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كان لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات

(١) البند : العلم الكبر ، يريد به الثوب .

البديعية اللفظية ، فإنه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما علم ما يكون من المحسنات فى العربية ركافة عنه الفرنسيين ، صلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاسعمال الا نادرا فان كانت فهى من هزلبات أدبائهم وكذلك مثل الجناس التام والناقص فإنه لا معنى له عندهم وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية ، مما يكون مزينا بذلك ، مثل قول صاحب البديعية :

من العقيق ومن تذكاز ذى سلم براعة العين فى استهلالها بدم
ومن أهيل النقا تم النقا وبدا تناقص الجسم من ضر ومن ضم
ولا يمكن أن ينقل الى لغاتهم ما قلته فى نظم مصطلح الحديث :

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا
ومرسل اللمع من عيني قد اتصلا

تواترت قصتى فى الناس قاطبة
حتى لضعفى رثى لى كل من عدلا

تعنعن السحب عن عيني روايتها
كما يسلسل عنها القطر اذ هملا

رفعت أمرى الى قاضى الهوى فأبى
وقال : مالى على هذا المليح ولا

ياقلب صبرا على ما فيك من عدل
ولا تشد ، وتجزع ، واترك المملا

ودع بقية ما أبقاه من رمق
لديه ، لاتعتبر تعنيف من عدلا

فذاك لاح وبالتدريس مشتهر
وقوله منكر ، زور ، وما قبلا

الى آخر قولى فيها :

وقفت حبنى عليه لا يجاوزه

وهكذا شأن صب فى الهوى كملا

وسياتى نتميم الكلام على ذلك . وبجملة فلكل لسان
اصطلاح وأصطلاح اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن ، وتصريف
الفعل مع فعل آخر . مثلا اذا أراد الانسان أن يخبر بأنه أكل فانه
يقول : أملك ماكولا ، يعنى لا يمكن تصريف (أكل) فى بعض أحواله
الا مع فعل الملك أو التلبس ، فكأنه يقول : تلبست بالأكل واذا
أراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجا ، يعنى : خرجت
وهكذا يسمى فعل الملك ، وفعل الكينونة : فعلين مساعدين ، يعنى
أنهما يعينان على تصريف الأفعال ، ويتجردان عن معنهما الأصلي ،
واذا أرادوا تعدية الفعل قالوا : فعلت له الأكل ، يعنى جعلته يأكل ،
أو أكلته ، وفعلت له الخروج ، يعنى اخرجته وهكذا . فلا يمكنهم
تصريف الأفعال كما يمكن فى اللغة العربية ، فلذلك كانت لغتهم
ضيقة من هذه الحيثية ، ثم ان قواعد اللسان الفرنسية وفن
تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى : (غراماتيقى) « واغرمير »
(بتشديد الميم) عند الفرنسيين ، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة
من اللغات ، فكأنه يقول : فن النحو فيدخل فيه سائر ما يتعلق
باللغة ، كما نقول نحن : علوم العربية : ونريد بها الاثنى عشر علما
المجموعة فى قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغة

ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء

كذا المعانى بيان الخط قافية

تاريخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة

فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح اذ حصرها ونقسيمها فى ذلك جعلى
لاحصرى .

والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط ، فكيف يكون كل من الشعر والفريضة والقافية علما مستقلا برأسه وكل من النحو والصرف والاشتقاق علما برأسه . وانظر ما المراد بالتاريخ ويكونه من العلوم العربية مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان وأول ما ظهر فى هذا الفن كتب « اوميروس » فى واقعة « تروادة » ولم تؤلف فيه العرب الا فى الأزمنة الأخيرة ، اللهم الا أن يكون المراد بالتاريخ طريقة انشاء تواريخ الحوادث السنوية على أسلوب حساب الجمل ، فيكون أيضا تسميته علما من قبيل التوسع فى تعريف العلم . وعلم الخط قديم أيضا فالفرنجة يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام ، بل ويعدون منه المنطق والوضع والمناظرة .

ثم ان اللغة الفرنسية كغيرها من اللغات الافرنجية لها اصطلاح خاص بها ، وعليه ينبى نحوها ، وصرفها ، وعروضها ، وقوافيها ، وبيانها ، وخطها ، وانشاؤها ، ومعانيها ، وهذا ما يسمى « اغرماتيقى » فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها ، فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ، نعم اللغة العربية أفصح اللغات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحلاها على السمع ، فحينئذ العالم باللغة اللاتينية يعرف سائر ما يتعلق بها ، فله ادراك فى النحو فى حد ذاته وفى غيره كالصرف ، فمن الجهل أن يقال : انه لا يعرف شيئا ، بدليل جهله باللغة العربية ، واذا تبهر الانسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوة ، يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الأخرى وعبر له عنه كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما

كان يعرفه من قبل ، ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ، (ص ٦٢)
ويبطل منه ما لا يقبله العقل ، كيف والعلم هو الملكة وحينئذ فقد
لا يعرف الانسان المطولات باللغة العربية ، ويعرف ذلك باللغة
الفرنساوية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخدومة فلها مطولها
وأطولها وسعدها (١) نعم ليس كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء •
ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله وكما قال الشاعر :

وهيهات ما كل النسيم حجازيا

ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بنية ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج :

وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج

ولله در من قال :

يليق الخطاب اليعربى بأهله

فيهدي الوفا للنقص والحسن للقميح

ومن شرف الأعراب أن محمدا

أنى عربى الأصل من عرب فصيح

وأن المثانى أنزلت بلسانه

بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع ما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم

بها كالعرب فهذا لا أصل له ، ومما يدل على ذلك أنى اجتمعت

فى « باريس » بفاضل من فضلاء الفرنسية شهير فى بلاد الافرنج

بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى

« البارون سلوسترى داساس » وهو من أكابر « باريس » وأحد

أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها ، وقد انشرت تراجمه

(١) السعد والاطول والمطول شروح وتعليقات لكتاب الخطيب القزوينى فى

علم البلاغة •

فى « باريس » وشاع فضله فى اللغة العربية ، حتى انه لخص شرحا للمقامات الحريرية ، وسماه مختار الشروح ، وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه ، وذكاء عقله ، وغزارة علمه ، لا بواسطة معلم الا فى مبدأ أمره ، ولم يحضر مثل الشيخ خالد (١) فضلا عن حضور المغنى (٢) مع أنه يمكنه قراءة المغنى ، كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات ، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية الا اذا كان بيده الكتاب ، فاذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها . ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف ، وقلم عبارته ، فانه بليغ ، وان كان به يسير من الركافة ، وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الافرنجية ، فلذلك مالت اليها عبارته فى العربية ، قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الاسلام من غير أن يغبن أحدهما :

« بسم الله المبدئ المعين . الحمد لله العالى المتعالى . الذى له الأسماء الحسنى . ولا يخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شئ أقسى ولا أدنى . العليم الذى ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية . لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان . ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان . مسبب الأسباب الذى لا يتحرك فى أطرافه الأرض والسماء متحرك الا بقدرته وارادته . ولا يتكلم فى أكناف الآفاق متكلم الا بالهامه وافادته . أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه ، وضعف عقله فهده برحمته وتوفيقه الى تحصيل بعض العلوم والفنون . وأشكر له شكر من كان يخطئ فى ظلام الجهل فأخرجه برافته وتأييده الى

(١) كتاب ابتدائى فى النحو .

(٢) كتاب للمنتهين فى النحو .

فضاء الرشده ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون .
ثم أتوسل اليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين . وأوليائه المقربين .
الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر . وكالتاج على مفرق
العصر . وأسأله عز وجل أن يجعلني من عباده المهتمدين . الذين
أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، انه على كل شيء
قدير ، وباجابة هذا الدعاء جدير .

أما بعد : لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائده
الأفهام ، واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ،
بعث في كل أمة من الأمم من يكون في نمهيد قواعد البلاغة واستنباط
أحكام شريعته معلوما مشهورا ، وبصير لسالك طريقه الفصاحة
اماما ودستورا ، فممن استهر بذلك بين الأنام . وصار المنسار اليه
في هذا الباب عند أهل الاسلام . مؤلف المقامات المشهور بالحريري ،
وهو الشيخ الامام أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان
البحري الذي ازدري من كان قبله من الأدياء والفصحاء ، وأجهد من
جاء بعده من الظرفاء والبلغاء ، فاني لما رأيت أن كتابه المذكور ، لم
يزل مذأله الى برصا هذا لعلم الأدب كالعلم المتسهور ، يحسبه
الخاصة والعامه واسطة عقده ، وخالصة نقده ، ويعتقدونه
نور مصباحه ، وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار
بستانه . وأنمار جنانه . وزلال مائه . ونسيم هوائه ، أحببت أن
أشرحه سرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن
مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل .

وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ،
وذكرهم الحاج خليفة في كتابه المسمى « كشف الظنون ، عن أسامي
الكتب والفنون » ، وما وصل يدي اليه من مؤلفاتهم شروح أربعة
منها « غريب الايضاح في غريب المقامات الحريرية » للامام
برهان الدين أبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي الخوارزمي

المتوفى سنة عشر وستمائة ، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد
لمحصل المقصود .

والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع
الأدب ، وهو صاحب كتاب « المغرب » تكلم فيه على الألفاظ التي
يستعملها الفقهاء من الغريب .

ومنها كتاب « شرح ما غمض من الألفاظ اللغوية ، من المقامات
الحريرية » تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى
البغدادى المتوفى سنة عشر وستمائة، قال: انى رأيت المقامات الحريرية
مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهى أحد الكتب التى عنى بها علماء
العربية ، ودعانى ذلك الى تفسير ما غمض من ألفاظها على الايجاز ،
وقد كنت عنرت لمعض الناس على شىء من ذلك الا أنه أسهب بما
لا يحتاج اليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشئها .

ومنها « شرح المقامات » للأستاذ اللغوى النحوى أبى العباس
أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسى الشريشى المتوفى سنة تسع
عشرة وستمائة وهو شرح طويل ، ذكر الشريشى أنه لم يترك فى
كتاب من شروح المقامات فائدة الا استخرجها، ولا عائدة الا استدرجها،
ولا نكتة الا علقها ، ولا غريبة الا استحلقتها ، حتى صار شرحه تأليفا
فى المقامات يعنى عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج الى سواه فى
لفظة من ألفاظها ، ولا معنى من معانيها ، وقد أخذ شيئا كثيرا من
شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب « سلوان المطاع » فى عدوان
الأتباع المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة .

ومن شرح الفنداهجى ، وهو الشيخ الامام تاج الدين أبو سعيد
محمد بن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى.

الفندھجى ، وقيل : البندھجى ، المتوفى بمدينته دمشق سنة
أربع وثمانين وخمسمائة .

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبى بكر محمد
ابن أبى بكر الرازى ، صاحب أسئلة القرآن ، ومختار الصحاح ،
المتوفى بعد سنة ستين وستمائة . وهذا الشرح لم يذكره الحاج
خليفة فى كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف ، يشهد لصاحبه بكمال
الأدب الا أن النسخة التى هى فى ملكى نسخة ناقصة سقط منها نحو
نصف الكتاب حتى لم يبق الا شرح الخطبة ، ثم شرح المقامة الخامسة
والعشرين ، أخذنا من قول الحريرى : وانى والله طالما تلقيت الشتاء
بكافاته الى آخرها ، وشرح ما يتلوها من المقامات الى (١) قوله فى
المقامة الخمسين .

(ولم تزل معتكفا على القبيح الشنع)

هذا ما كان لى من شروح المقامات ، وقد اجتمع عندى أيضا
نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من
التعليقات والحواشى ما ينتفع به القارىء ، وقد اخترت من تلك
الشروح والحواشى كل ما يحتاج اليه طالب العلم فى تحصيل المقصود ،
ويستعين به الراغب فى الأدب ، على ادراك المطلوب ، ثم أضفت الى
ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ، ومن مجمع
الأمثال ، للعلامة الميلانى ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،
لأبن خلكان ، ثم من ديوان البحرى ، ومن ديوان المتنبى ، وشرح
المعلقات للزوزنى ، وغير هذا من كتب الأدب كل ذلك ليتيسر على
من أعجبه الغوص فى بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل
يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية المشرقية أن
يصل من جواهر معادنها الى كل فلذة ثمينة جزيلة ، وانما المرجو ممن

(١) فى النسخة المطبوعة ببولاق : « الا » .

نظر في هذا الشرح المختار أن لا يؤخذنى على ما ظهر عليه من العشرات ، بل أن يستر بسذيل كرمه ما استبان له من العورات • والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرف والغرب نافعاً مفيداً • ولجميع من أسرع الى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئاً مريئاً حميداً انتهى كلامه •

وقال في المقدمة الفرنسية لهذا الكتاب : ان المقامات البديعية تفضل المقامات الحريية •

وقد ترجم الى الفرنسية عدة مقامات من الاثننتين في مجموعته: كتاب الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد ، وجامع الشذور ، من منظوم ومنثور • وبالجملة فمعرفة خصوصاً في اللغة العربية مشهورة ، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربي الابغاية الصعوبة • وقد رأيت له في بعض كتب توقيفات عظيمة ، وايرادات جلية ، ومناقضات قوية، وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة في سائر اللغات ، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات شعر :

العلم لا يدرك بالتمنى عليك بالتكرار والتأني
كم أعجمي الكن أحن أدرك بالتكرار كل فن
ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب في النحو سماه
التحفة السننية ، في علم العربية ، فانه ذكر فيه علم النحو على ترتيب
عجيب لم يسبق به أبداً ، وله مجموع سماه المختار من كتب أئمة
التفسير والعربية في كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية
واللغوية ، فقد جمعه وترجمه من العربية الى الفرنسية ، وله غير
ذلك من المؤلفات والتراجم خصوصاً في اللغة الفارسية ، فانه بارع
فيها غاية البراعة ، وشهرته بالفضل في بلاد الافرنج لاتنكر ، حتى
انه قد اتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم • واتساع دائرة

عذا الجبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة
بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابى فيلسوف الاسلام : من
أنه كان يحسن سبعين لسانا ولندكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ،
فنقول :

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى
الفارابى الحكيم الفيلسوف فيلسوف الاسلام الماهر الباهر ، قدم
على سيف الدولة بن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع
العلوم ، فأدخل عليه ، وهو بى الأثر ، وكان ذلك عادته فوقف
بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس ، فقال : حيث أنت أو حيث
أنا ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس ، حتى انتهى الى مجلس
سيف الدولة وزاحمه فى مسنده حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس
سيف الدولة مماليك وله معهم لسان يسارهم به قال أن يعرفه أحد ،
فقال لهم بذلك اللسان : ان هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وانى
مسائله عن أشياء ان لم يعرف بها فأخرجه ، فقال له أبو نصر
بذلك اللسان : أيها الأمير اصبر ، فان الأمور بعواقبها ، فتعجب
سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم ،
أحسن أكثر من سبعين لسانا ، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء
الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، ولم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم
يسفل ، حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون
ما يقول ، فصر فهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى
أن تأكل ؟ قال : لا ، قال : فهل تشرب ؟ قال : لا ، قال : فهل
تسمع ؟ قال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل
ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى . فلم يحرك أحد منهم آنته
الا عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت فقال له سيف الدولة : فهل
تحسن فى هذه الصنعة شيئا ؟ قال : نعم ، ثم أخرج من وسطه
خريطة ، ففتحها ، وأخرج منها عيدانا فركبها ، ثم لعب بها ، فضحك
كل من فى المجلس ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فبكى كل من فى

المجلس ، ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! .

وكان منفردا بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه يلمسقى لا يكون غالبا الا عنده مجتمع ماء ، أو مشتبك أشجار ورياض ، يؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه (١) المشتغلون عايه وكان يلزم غياض السفرجل ، وربما صنّف هناك ، وقد ينام ، فتحمل الريح تلك الأوراق ، وتنقلها من مكان الى مكان . قيل : وهو السبب في نقص بعض مصنفاته فانه كان يصنّف في الرقاع دون الكراريس .

وكان أزهد الناس في الدنيا متقللا منها أجرى عليه سيف الدولة في كل يوم أربعة دراهم ، ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال وكل رأس به صداع
لزمت بيتي وصنت عرضا به من العزة اقتنناع
أشرب مما اقتنيت راحا لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى ومن قراقيرها سماع
وأجتنبى من علوم قوم قد أفقرت منهم البقاع

ومنه :

أخى خل حيز ذى باطل وكن بالحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا ولا المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعن على نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم أولى بنا فماذا التواحم فى المركز

توفى أبو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ من الهجرة .

(١) فى المطوعة الولاية : « ويتناوبه » .

ثم ان الفنون باللغة الفرنسية قد بلغت درجة أوجها حتى ان كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم في ألفاظ العلوم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسة الطباعة ، يعنى مجلس علماء الطباعة وشعرائها ، وان كان هذا من أنواع الهوس ، غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ، ولو الدنيئة وسواء في ذلك الذكور والاناث ، فان للنساء تأليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، منهن من يتمل بانشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يابق بتلك البلاد ، فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهها وعن معرفتها .

ثم العلوم الأدبية الفرنسية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليفهم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلا : اله الجمال ، واله العشق ، واله كذا ، فألفاظهم في بعض الأحيان كفرية صريحة وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون ، وانما هذا من باب التمثيل ونحوه . وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنسية لا بأس به ، ولندكر لك شيئا من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

واذا القلوب إتعلقت	رأت الجميع جميلا
كسفينة تسعى الى	شعب يكون مهولا
لهفى على زمن الهنا	ان صحح كان بهخيلا

وقوله مترجما لي :

ودع القلب فيك يا قاتلي	يا خيال المسعد الزائر
ان روحى بالجراح اصطلت	وعلى البرء لست بالقادر
وسرورى فى الهوى لمحمة	مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة : نظم العقود ، في كسر العود ، للخواجة
يعقوب المصري منشأ ، الفرنساوى استيطاناً ، وقد اعتنيت بترجمتها
سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين : ، وأخرجتها من ظلمات الكفر
الى نور الاسلام قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير :

زادى الحال اذ صفالى حانى وغنائى بالعود والألحان
باسم ربى والسادة الأعيان وترنمت سحوة بالحسان
وبسعدى ذات الجبين المفدى

فصغى سمعها الى الشادى ورمى النار لحظها فى فؤادى
فلهذا شعرى غدا فى اتقاد وبدا من حماسه فى انفسراد
لذوى الفهم والمعارف يهدى

أحرق العشق قلبها كاحتراقى فأنت تطفىء اللظى بالعناق
فتضامنا ضمة المشتاق وتلائمنا عادة العشماق

فتننت لتخجل الغصن قدا

شنف السمع من رقيق الثغانى واستمع يا أخى صوت المتغانى
يا خليلى بالله هلا ترانى أننى قد أحبيبت شعر «ابن هانئ»
بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر الى ذم العشق وتوابعه
فقال :

واحيائى واخجلتى صار فنى أننى فى هوى الملاح أغنا
برخيم الغنا كظمى أغن وبأوتسارى أبتسدى وءا
ما أرى هذا للفضائل أجسدى

أفأياي كلها لى عقيمه أو مالى عواقب مستقيمه

بل على طاعة الهوى مستديمة أفما هذه مراق ذميمة

أقتفى هزلها وأرفض جد

أعلى احتساء كأس نصيب خامل غير كافل لأريب
مع أنى والله غير مريب همتى همه الذكى النجيب

تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته، لاسيما
وهى تتأذى من فراقه :

ويح: عز وسؤدد نشتريه بنواح السلاح اذ نشنهيه
يا فؤادى سئل عند أى فقيه يغفر الذنب من قتال بنيه
لنوال الفخار علك تهدى ؟

يا فؤادى قد أسلمتكم الأمورا وأباحتك متجرا لن يبورأ
أفترضى على الطلبأ أن تجورا لست أليفك آسفا مقهورأ

حيث قدمت قلبها الآن قدا

وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنسية عالية
عالية النفس فى أصلها ، ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها ، فلا تظهر
علو نفس صاحبها . ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فانه
لا يمكن ترجمتها الى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حس ،
بل ربما صارت باردة ، وسيأتى تكميم الكلام على غالب الآداب
الفرنساوية والعلوم والفنون .

الفصل الثالث

(في تدبير الدولة الفرنسية)

ولنكتشف الغطاء عن تدبير فرنساوية ، ونستوفي غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن « باريس » هي كرسى بلاد الفرنسيين ، وهي محل إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسماة « البربون » (بضم الباء الموحدة ، وسكون الراء ، وضم الباء النائية) فلا يكون ملك فرنسا الا من هذه العائلة .

ومملكة فرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرنسا (سراية) تسمى ، « التولرى » (بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء) ، والغالب أن فرنساوية يعبرون عن ديوان فرنسا بقولهم : « كابينة التولرى » يعنى ديوان هذه السراية ، أى ديوان الملك .

ثم ان أصل القوة فى تدبير المملكة لملك فرنسا ، ثم للجماعة أهل « شمبر دوير (١) » (بفتح الشين ، وسكون الميم) يعنى ديوان « البير » (بفتح الموحدة) أى أهل المشور الأولى ، ثم لديوان رسل العملات ، ثم ان الديوان الأول ، يعنى ديوان « البر » هو فى قصر « بباريس » يسمى قصر « لقسمبورغ » والديوان الثانى

(١) Chambré des paris بالفرنسية أى مجلس الأعيان وبلاحظ أن المؤلف استعمل (de) وهى للمفرد ، مكان (des) وهى للجميع .

فى قصر « بوربون » ، ثم يلى ديوان رسل العملات ديوان الوزرا-
والوكلاء ، ثم ديوان يسمى « الديوان الخصوصى » ، وبعد ذلك
يوجد ديوان يسمى « ديوان سر الملك » وديوان يسمى « ديوان الدولة
للمشورة » فحينئذ ملك فرنسا صاحب قوة تامة فى مملكته بشرط
رضاء تلك الدواوين المذكورة ، وله خصوصيات آخر سيأتى ذكرها
فى السياسة الفرنسية .

ووظيفة أهل ديوان « البير » تجديده قانون مفقود ، أو إبقاء
قانون موجود على حاله ، ويسمى القانون عند الفرنسية : شريعة :
فلذلك يقولون : شريعة الملك الفلانى ومن وظيفة ديوان « البير » أن
يعضد حقوق تاج المملكة ، ويحامى عنه ، ويمنع سائر من ينهض
لها . وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة ، فى زمن
اجتماع ديوان رسل العملات ، باذن ملك الفرنسيين . وعدد أهل
ذلك الديوان غير منحصر فى عدة مخصوصة ، ولا يقبل دخول الانسان
فيه الا وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يشرك فى الشورى الا وهو
ابن ثلاثين سنة مالم يكن من بيت المملكة ، والا فبمجرد ولادته يحسب
من أهل هذا الديوان ويشرك فى المشورة حين يبلغ عمره
خمسا وعشرين سنة .

وكانت وظيفة « البيرية » متوارثة للذكور فيقدم أكبر الأولاد ،
ثم بعد موته يقدم من يليه وهكذا .

وظيفة ديوان رسل العملات غير متوارثة ، ووظيفتهم امتحان
القوانين والسياسات والأوامر والتدبير والبحث عن إيراد
الدولة ومدخولها ومصرفها ، المنازعة فى ذلك والمناعة عن الرعية
فى المكوس والفرد (١) وغيرها ، إبعادا للظلم والجور وهذا الديوان

(١) الفرد جمع الفردة وهى الضريبة ، وهى كلمة تستعملها العامة فى مصر
الى وقتنا هذا .

مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهالى العمالات وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولا ولا يقبل الا من يكون سنة أربعين سنة . ولا بد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة . وأما الوزراء فانهم متعددون ، فمنهم وزير الأمور الداخلة ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الأمور الخارجية ، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيين ، الناقلين ببلاد يعمرونها ، فى غير بلاد الفرنسيين ، ثم وزير الخزينة ثم وزير الأمور الدينية ، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ، ثم وزير التجارات ووزير الأمور الداخلية نظير (الكتخدا) بمر مصر ، ووزير الخزينة نظرا لخازندار ، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس افندى بالدولة العثمانية ، ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية ، وهكذا ، غير أنه عندنا ليس وزيرا ، وعندهم يعدونه من الوزراء .

وأما الديوان الخصوصى فانه تخصيص الملك لجماعة بمشورته اياهم على مادة مخصوصة ، والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه .

وأما ديوان سر الملك فانه يتألف من وزراء السر ومن أربعة وزراء آخر ، لهم وزارة مطلقة ثم جماعة من أرباب المشورة فى الدولة .

وأما ديوان الدولة فانه يتألف ممن يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة ، ثم من وزراء الدولة المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ، ليتعلموا تدبير الدولة .

ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هي قانون مقيده بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو المذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين ، وأن ديوان « البير » يمانع عن الملك وديوان رسل العمالات

يحامي عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر (بضم اللام وكسر الواو) ولا زال متبعا عندهم ومرصيا لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل .

والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة (١) ومعناها فى اللغة اللاتينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ، ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك . حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم . وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران .

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء أو فى ضده ، من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيتامى مفتاح الفقر . والحلم حجاب الآفات . وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه إياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل . وقيل : اذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطيع ، ان المولى اذا كلف عبده مالا يطيعه فقد أقام عذره فى مخالفته . وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل :

تروم ولاية الجور نصرا على العدا
وهيئات يلقي النصر غير مصيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه
سهام دعاء من قسى قلوب ؟

وقال آخر :

لا يفلح المغتال والظلموم والبغى مرعى نبتة وخيم
فمضجع الظالم بنس المضجع ومصرع الباغي فبنس المصرع
ان القصاص واقع بالمنسل والدهر يجزى بيسير الفعل

وفى هذا القانون عدة مقاصد : المقصد الأول الحق العام
« للفرنساوية » . الثانى : كيفية تدبير المملكة : الثالث فى منصب
ديوان « البير » . الرابع : فى منصب « ديوان رسل العمالات »
الدين هم أمناء الرعايا ونوابهم . الخامس : فى منصب الوزراء .
السادس : فى طبقات القضاء وحكمهم . السابع : فى حقوق
الرعية . قال صاحب الشرطة المذكورة :

الكلام على حق فرنساوية المنصوب لهم

المادة الأولى : سائر فرنساوية مستنون قدام الشريعة .
المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً لبيت
المال ، كل انسان على حسب ثروته .
المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان
وأى رتبة كانت .
المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له

حريتها ، فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق المذكورة فى الشريعة،
وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل انسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع
دينه كما يجب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع
من يتعرض له فى عبادته .

المادة السادسة: يشترط أن تكون الدولة على المللة (القائولية)
الجوارية الرومانية .

المادة السابعة : تعمير كنائس (القائولية) وغيرهم من
الصحراة يدفع له شيء من بيت مال النصرانية ولا يخرج منه شيء
لنعير معابد غير هذا الدين .

المادة الثامنة : لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن
يكتبه ، ويطلبه بشرط أن لا يضر ما فى القانون فاذا ضر أزيل .
المادة التاسعة : سائر الأملاك والأراضى حرم ، فلا يتعدى أحد
على ملك آخر .

المادة العاشرة : للدولة دون غيرها أن تكره انسانا على شراء
عقاره لسبب عام النفع ، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء .
المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء
والفتن يجب نسيانه ، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد .
المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه
وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر .

كيفية تدبير المملكة الفرنسية

المادة الثالثة عشرة : ذات الملك محترمة ووزراؤه هم الكفلاء
فى كل ما يقع ، يعنى هم الذين يطالبون ، ويحكم عليهم ، ولا يمكن
أن يضى حكم الا اذا أنفذه أمر الملك .

المادة الرابعة عشرة : الملك هو أعظم أهل الدولة فهو الذى يأمر وينهى فى عساكر البر والبحر وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذى يولى المناصب الأصلية ، ويحدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ، ويمضيه إذا كان فيه منفعة للدولة .

المادة الخامسة عشرة : تدبير أمور المعاملات بفعل الملك وديوان « البير » و « وديوان رسل العملات » .

المادة السادسة عشرة : يقرر الملك وحده جزاء القوانين ، ويأمر بإعلانها وإظهارها .

المادة السابعة عشرة : يبعث القانون بأمر الملك الى ديوان « البير » أولا ، ثم الى ديوان رسل العملات الا قانون الجبايات والفردة ، فانه يبعث أولا الى ديوان رسل العملات .

المادة الثامنة عشرة : ننفذ الدولة القانون اذا رضى به جمهور كل من الديوانين .

المادة التاسعة عشرة : لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك اظهار قانون فى أمر كذا ، وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون .

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى ، وما صنعه أحد الديوانين واستقر رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر بعد التفكير عشرة أيام .

المادة الحادية والعشرون : اذا رضى الديوان الآخر بالقانون فانه يصبوغ عرضه على الملك فاذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له أى لذلك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة .

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للريعية .

الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة توليته على
كيفية واحدة لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من
مجلس ديوان « البير » يعنى ديوان المشورة الأولى .

الرابعة والعشرون : ديوان « البير » هو جزء ذاتى لتشريع
القوانين النديرية .

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر
بأمر الملك فى زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العملات فيفتحان
معا فى يوم واحد ويغلقان كذلك .

السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان (١) « البير » قبل
انفتاح ديوان رسل العملات أو قبل اذن ملك فرنسا كان سائر
الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء
وملغيا .

السابعة والعشرون : تسمية الشخص « بير فرانسوا » هو حق
الملك وعدد أهل ديوان « البير » غير محدود وللملك أن يلقب « البير »
بأى لقب كان ، وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله
متوارثا لذريته .

الثامنة والعشرين : يمكن أن يدخل « البير » فى الديوان وهو
ابن خمس وعشرين سنة ، ولا يبدى رأيه فى المشورة الا بعد بلوغه
فى السن ثلاثين سنة .

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان « البير » هو قاضى قضاة
فرنسا مهردار ملكها أى وزير خاتم ملكها ، فان اعتذر خلفه من أهل
الديوان من يعينه الملك لذلك .

(١) مجلس الأعيان .

الثلاثون : أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة «البيرية» بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان ، ولا يكون لهم كلمة ورأى فى المجلس الا بعد بلوغهم فى السن خمساً وعشرين سنة .

الحادية والثلاثون : لا يمكن لأحد من أهل مجلس « البير » أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه الا باذن من الملك بأن يعث رسولا فان فعلوا غير ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا .

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان « البير » يجب كتبها عن غيرهم .

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذى يستغل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القوانين .

الرابعة والثلاثون : لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان « البير » الا بأمر ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنائيات .

ديوان رسل العملات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العملات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون (بكسر الخاء) الذين يقل لهم « اللكتور » (بكسر اللام المشددة) وسكون الكف) وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة .

السادسة والثلاثون : كل العملات تبقى على ما هى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل .

السابعة والثلاثون : من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات لا خمسة ، كما كانت .

الثامنة والثلاثون : لا يصلح الانسان للدخول فى ديوان الرسل
الا اذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك
مجردة .

التاسعة والثلاثون : لا بد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف
نفس موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران ، ليختار الرسل
منها ، فان لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها
ممن (١) لهم أملاك يدفعون عليها دون ألف فرنك ، ثم اختيار الرسل
من جملة الخمسين .

الأربعون : شرط « اللكتور » أى المنتخب للرسل أن يكون له
ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك ، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين
سنة .

الحادية والأربعون : رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ،
فيدخلون فى أهل هذا المجلس .

الثانية والأربعون : يجب أن يكون نصف رسل العملات
تصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة .

الثالثة والأربعون : رئيس ديوان رسل العملات ينصبه الملك
ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان .

الرابعة والأربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية الا اذا
أراد خمسة من رسل العملات كتم شيء ، فانه يجوز اخراج الناس
الأجانب من الديوان .

الخامسة والأربعون : الديوان ينقسم الى دواوين صغيرة تسمى

(١) فى المطبوعة : « مما » .

« البورو » يعنى مكاتب ، فأهل هذه « البورو » تمتحن الأشياء التى يستحسنها الملك ويبعثها لها .

السادسة والأربعون : لا يقع تصليح شىء فى آداب سياسات فرانس ، ولا يمضى الا اذا رضى به الملك وبحث فيه فى تلك الدواوين الصغيرة .

السابعة والأربعون : ديوان رسل العملات يتلقى تقارير طلب الفرد ، والمكوس ولا تصل الى ديوان « البير » الا اذا رضى بها ذلك الديوان .

الثامنة والأربعون : لا يمكن أن ينفذ أمر الملك فى الفرد الا اذا رضى به الديوانان وأقره الملك .

التاسعة والأربعون : فردة العقار لا تقطع الا سنة فسنة ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم .

الخمسون : على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ولكن متى أراد ، وله أن يبطل ديوان رسل العملات ، بشرط أن يصنع ديوان رسل جديدة ، وأن لا يزيد فى تجديده الآخر عن ثلاثة أشهر .

الحادية والخمسون : لا يمكن أن يقبض أحد على انسان من أهل مجلس رسل العملات مدة فتح الديوان ، وشهرا ونصفا قبل فتحه ، وشهرا ونصفا بعده .

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يقبض على أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ، مادام الديوان مفتوحا ، ومادام اجتماع الديوان ، الا اذا بغت وهو متلبس بالخطيئة أو أذن الديوان يأخذه .

السائنة والخمسون : عرض الحال الذي يعرض على أحد الديوانين لا يقبل الا اذا كان مكتوبا ، وآداب السياسة الفرنسية لا تجوز أن يقدم الانسان تقريراً بنفسه في المجلس .

الوزراء

المادة الرابعة الخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين ، وله زيادة على ذلك حق الحضور في أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم في الديوان وجب أن يصغى الى كلامه .

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العملات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه في ديوان « البير » ليحكم بينهم ذلك الديوان فيفصل خصومتهم .

السادسة والخمسون : لا ينهم الوزير الا بخيانة في التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر في القوانين المخصوصة .

طائفة القضاة

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتون الحكم باسم الملك .

الثامنة والخمسون : اذا ولى الملك قاضيا وجب أبقاؤه ولا يجوز عزله

التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر .

الستون : اقامة قضاة المعاملات لا يمكن ابطالها أبدا .

الحادية والستون : اقامة قضاة المصالحة تبقى أيضا ولكن قاضي المصالحة يجوز عزله ، وان كان منصبه يأتي له من الملك

التانية والستون : لا سىء يخرج عن حكم هؤلاء الفضاة .
التالنة والستون : لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم أو
مجالس زائدة الا بجمع قضاة النقباء الذين يقال لهم « بربوتال
اذا احتاج الأمر الى ذلك » .

الرابعة والستون : اقامة الدعوى والنشاجر بين الخصوم فدام
الحاكم الشرعى تكون على رؤوس الأشهاد فى مواد العقوبات ، الا اذا
كان الذنب مضرا اشهاره بين العامة أو مختلا بالحياء ، فان أهل المحكمة
يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سرا .

الخامسة والستون : اقامة (ص ٧٩) الجماعة المحكمين
المسماة « جورية الجنائيات » لا تبطل أبدا ، واذا لزم تغيير بعض
شء فى مواد القضاة لا يمكن الا اذا كان بقانون من الديوانين .

السادسة والستون : قانون معاقبة الانسان بالاستيلاء على
ما تملكه يده فد أبطال بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبدا .
السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الانسان ، وأن يخفف
مواد العقوبات .

الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التى عليها العمل
أغرب المناقضة لما فى هذا الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها الا اذا تغير
بقانون آخر .

حقوق الناس التى يضمونها الديوان

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب
خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة ، وكل النساء المتوفى عنهن
أزواجهن وهم فى العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم
وخروجهم .

السبعون : ديون الرعية التي فى ذمة الديوان هى مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديون .

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف الا الاسم فقط ، وكذلك لأرباب الشرف الجديد ، ثم لملك فرانسا أن يعطى درجة الشرف الفرنساوى لآى انسان شاء ، ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية .

الثانية والسبعون : من له علامة التمييز المسماة درجة « الشوالية » يعنى الفارس فى فنه فان له أن يحفظها على الصورة التي يعينها ملك فرنسا لهذه الدرجة .

الثالثة والسبعون : القبائل والنزلات الخارجة من فرنسا لتعمير بلاد أخرى ، وللاستيطان بها ، تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخرى .

الرابعة والسبعون : على كل ملك من ملوك فرنسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنساوية ألا يحدد عن هذه الشرطة .

ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل من منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة فى سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وألف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة انتهى ، فاذا تأملت رأيت أغلب ما فى هذه الشرطة نفيسا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله فى المادة الأولى: سائر الفرنسييس مستوون قدام الشريعة، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى ان الدعوى الشرعية

نقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الأولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الأحكام .

ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلام عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية ، ونقدمهم فى الآداب الحضرية .

وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطاق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك ، لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الأحكام والقوانين ، بحيث لا يجوز الحاكم على انسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها

وفيهما توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبي اضافى لا عدل كلى حقيقى فانه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان . فهو كالايمان الكامل ، والحلال الصرف ، وأمثال ذلك ونظائره ، فلا معنى لعصر المستحيل فى الغول والعنقاء والخل الوفى ، كما هو مذكور فى قوله :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم خل وفى للشدايد اصطفى
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والنقاء والخل الوفى

ومع أن ذلك ممنوع فى العنقاء ، فانها نوع من الطيور ، موجود الأفراد ، يذكر عند أرباب علم الحشائش . وذكر الثعلبي فى قصص الأنبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان فى تكذيبها بالقدر ، نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب

والافرنج : من أنها من أعلاها عقاب ومن أسلفها أسد ، وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود .

وأما المادة الثانية فانها محض سياسية ، ويمكن أن يقال : ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كانت الزكوات والفقى والغنيمة لانفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى التريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : « الخراج عمود الملك » .

ومدة اقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس و (الفرد) والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون ، بحيث انها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى ، وننفع بيت ما لهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان الظلم والرشوة .

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعتته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده . قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال ، لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرتة ، ولا يكون له طمع فى غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق

الطمع ، وتجعل كل انسان راضيا صنعته ، لايتمنى أعلى منها ، بل لايبحت الا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها انتهى .

ويرد عليه أنه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عايتها ربما جعل الصغير خائبا في هذه الصنعة ، والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله ، وبلغ أماله .

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لأهل البلاد والغرباء . فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . وأما المادة النامنة فانها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة « بالجورنالات » و « الكازيطات » الأولى جمع (جرنال) والثانية جمع (كازيطة) فان الانسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى ، الا أنها قد تتضمن أخبارا تتشوق نفس الانسان الى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم: لا تحتقر الرأى الجليل ، يأتيك به الرجل الحقير فان الدررة لا تستهان ، ليهوان غواصها ، وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيتنه فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس فى انسان

ومن فوائدها : أن الانسان اذا فعل فعلا عظيما ، أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل (الجورنال) ليكون معلوما للخاص

والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلّمته في هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر .

وأما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف ، وهي واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف . وتعقيبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة ، وفي المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهي : أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الأولى : الملك مع وزرائه ، والثانية : مرتبة « البيرية » المحامسة للملك ، والثالثة : مرتبة رسل المعاملات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم ، حتى لا تظلم من أحد ، وحيثما كانت رسل المعاملات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها . وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهي آمنة منه بالكلية ، ولا يخفى عليك حكمة باقى المواد .

خلاصة حقوق فرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة

حقوق فرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم
(مضمون الشرطة بعد التغيير)

الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم
والمنصب والشرف والغنى ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا في الاجتماع
الانسانى والتحضر فقط ، لا في الشريعة فلذلك كان جميعهم يقبل
في المناصب العسكرية والبلدية ، كما أنه يعين الدولة من ماله على
قدر حاله .

وقد ضمننت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية ،
حتى لا يمكن القبض على انسان الا في الصورة المذكورة في كتب
الأحكام ، ومن قبض على انسان في صورة غير منصوصة في الأحكام
يعاقب عقوبة شديدة .

ومن الأشياء التي تترتبت على الحرية عند فرنساوية أن كل
انسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب
من تعرض لعباد في عبادته .

ولا يجوز وقف شئ على الكنائس أو اهداء شئ لها الا بإذن
صريح من الدولة .

وكل فرنساوى له أن يبدي رأيه في مادة السياسات ، أو فى
مادة الأديان ، بشرط أن لا يخل بالانتظام المذكور فى كتب الأحكام .

كل الأملآك على الإطآلق حرم لآتهنك ، فلا يكره إنسآن أبدأ
على إعطاء ملكه الإ لمصلحة عامة ، بشرط أخذه قبل التخليية قيمته ،
والمحكمة هى التى تحكم بذلك .

كل إنسآن عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه ،
بمعنى أنه كل سنة يجمع أولآد احدى وعشرين سنة لتضرب الفرعة ،
لأخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة الخدمة العسكرية ثمان سنوات ،
وكل فرنساوى عمره ثمان عشرة سنة ، وله حقوقه البلدية يمكنه
أن يتطوع ويدخل العسكرية .

ويعافى من العسكرية عدة أناس : الأول : من طوله دون
متر وخمسه وسبعين (سنتيمترا) يعنى أربعئة أقدام وعشرة
برامق (١) : الثانى : أصحاب العلل : الثالث الابن أكبر الاخوة
الأيتام من أبهم وأمههم : الرابع . الابن البكرى او المنفرد أو ابن
الابن الأكبر أو المنفرد عند فقده إذا كانت الام والجدة لآزوج لها
أو كان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة : الخامس : البكرى أأحد
الأخوين اللذين وقعا فى قرعة لمة واحدة . السادس : الأخ الذى
أخوه باق تحت البيرق أو مات فى الخدمة أو جرح فى الحرب ،
ولو أراد إنسآن أن ينسوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن
النائب سنة من خوف الهرب ، إلا إذا كان الهارب قبض عليه فى
السنة أو مات تحت بيرق الفرنسية ، وفى أأد وعشرين فى شهر
(دقمبر) (٢) من كل سنة كل العساكر التى تمت خدمتهم يؤذن
لهم بالعود الى محلهم .

ولما كان لا يمكن لكل إنسآن أن يدخل بنفسه فى عمل الدولة ،
وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك أربعمئة وثلاثين وكيلا تبعثها

(١) أصابع .

(٢) هكذا فى المطبوعة ولعله : ديسمبر .

الى باريس فى المشورة : وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها ، وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط التى منها أن يكون عمره خمسا وعشرين سنة ، له أن يكون ممن له مدخل فى انتخاب رسل عمالاته .

وكل فرنساوى له أن يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، وكان موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الأحكام .

وفى كل مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ، ومجمع انتخاب للأقاليم الصغيرة : ومجمع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا ، ومجمع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكسب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان أن يكتب اعلاما به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سرا فى ورقة ويعطيها للرئيس مطوية والرئيس يضعها فى اناء القرعة .

وديوان رسل العمالات يتجدد أهله بالكلية كل خمس سنوات ، ولا يمكن أخذ الفرد الا بخلاصة من مشورة الديوانين ، مقرر من طرف الملك ، ويمكن لأهل البلدان أن يراسلوا أهل الديوانين بطرق (العرضحال) ليشتكوا من شىء ويعرضوا شيئا نافعا .

القضاة لاينعزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيظانه . والدعاوى تقام جهرا ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جماعة يسمون « الجورين (١) » والعقوبة بالقبض على الأموال بطلت .

للملك أن يعفو عن المعاقب وأن يخفف العقاب الشديد - على

(١) يسمون المحلفين والكلمة فرنسية الأصل Jurés

الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بأن يعملوا بما فى كتاب
قوانين المملكة .

ثم انه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونيه
المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل : ان أحكامهم القانونية ليست
مستنبطة من الكتب (ص ٨٥) السماوية ، وانما هى مأخوذة من
قوانين أخر غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست
قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنسية ، أى حقوق
الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الافرنج
مختلفة ، ثم ان بباريس عدة محاكم ومى كل محكمة قاض كبير كأنه
قاضى الضامة وحوله رؤساء وأرباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ،
وهناك نواب للخصوم ونواب عن المحامين ، وموقع الوقائع .

(شعور)

من ادعى أن له حاجة تخرجه عن منهج الشرع
فلا يكون له صاحباً فإنه ضر بلا نفع

الفصل الرابع

[فى عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك]

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها ، وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لاينكر انسان أنها تجلب الأناى وتزين العمران . وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والبنادر أولى فى العمارات عادة من القرى والضىاع . والمدن العظمى أولى من سائر البنادر وتحت المملكة أولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة فحينئذ لا عجب أن قيل : ان باريس التى هى قاعدة ملك الفرنسيى من أعظم بلاد الافرنج بنساء ، وعمارة ، وان كانت عماراتها غير جيدة المادة فهى جيدة الهندسة والصناعة ، على أنه ربما يقال أيضا : ان مادتها جيدة الا أنها ناقصة ، لعدم كثرة حجر الرخام فيها ، ولخلوها عن بعض أشياء أخر - كيف لا ؟ وأساس حيطانها من أحجار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فأنها تتخذ من الخشب الجيد فى الغالب ، وأما عواميدها فهى غالبا من النحاس ، فقل أن كانت من الرخام ، كما أن تبليط الأرض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط ، وذلك أن الطرق دائما مبلطة بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالأجر

أو بالخشب ، أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول ، وجودة الحجر
أو الخشب تختلف باختلاف يسار الانسان .

ثم ان حيطان الغرفات والأرض من خشب كما تقدم ، وهم
يطلونه يطلونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نعشا
نطيفا ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فان الورق
لا يعود منه شيء على من مس الجدار ، بخلاف الجير ، بل وهو أهون
مصرفا وأعظم منظرا وأسهل فعلا خصوصا في (أوضاعهم) المزينة
بأنواع من الأمتعة التي لا يمكن الإفصاح عنها . غاية ما يقال : ان
الفرنساوية يحاولون اضعاف نور (الأوض) بوضع الستائر الملونة ،
خصوصا الخضراء ، وأرض أوضاعهم مبلطة بخشب أو بنوع من
القرميد الأحمر ، ويحكون أرض (الأوضة) كل يوم بالشمع
الأصفر ، المسمى عندهم سَمع الحك ، وعندهم حكاكون بالأجرة
معدون لذلك بالخصوص ، وتحت أسرنتهم ، المكسوة بالمخيشات
وبالمشجرات وغيرها ، سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال ، وفي كل
(أوضة) مدخنة للنار ، وهي على شكل صفة القلل مرخمة بجيد
الرخام ، وفوقها ساعة « بشتختة » (١) وحول الساعة من الجهتين
آنية من تقليد الرخام الأبيض ، أو من البلور ، فيها أزهار أو تقليد
ازهار ، وحول هذا من الجهتين القناديل الافرنجية الدولابية التي
لا يدرك صورتها حقيقية الا من رآها موقودة، وفي غالب (أوضاعهم) آلات
الموسيقى المسماة « البيانو » (بكسر الباء وضم النون) ، فاذا
كانت (الأوضة) أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على
آلات الكتابة وغيرها ، مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج
أو البقس (٢) أو غيرهما . وأغلب (الأوض) مشحونة بالصور ،

(١) نوع من المناضد الصغيرة ذات الأدرج .

(٢) اسم لنوع من الأشجار .

خصوصا صور الأقارب • وفى (أوضة) الشغل أيضا قد توجد صور « عجيبة » وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم •

وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها ، وربما رأيت كذلك فى (أوض) الاكابر (النجفات) العظيمة التى توقد بشموع العسل ، وربما رأيت أيضا فى (أوضهم) فى يوم تلقى الناس طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرها لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره ، وينزه خاطره فى قراءة هذه الأشياء ، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهى أنسهم •

ومن التوقيعات اللطيفة : الكتاب وعاء مليء علما ، وظرف حشى ظرفا ، ومن لك بروضة نقلب فى حجر وبستان يحمل فى كم ، وما أحسن قول بعضهم شعرا :

دفتري مؤنسى وفكرى سميرى ويدى خادمى ، وحلى ضجيعى
ولسانى سيفى ، وبطشى قريضى ودواتى عيشى ، ودرجى ربيعى
وقال آخر :

لنا جلساء ما يمل حديتهم الباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى وعقلا وتاديبا ورأيا مسددا
فان قلت أموات فما أنت كاذب وان قلت أحياء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر • ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكيا أحسن تبسما من القلم • ثم ان جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت أى زوجة صاحبه التى تحب الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية ، فأين هذه (الأوض) بما احتوت عليه من اللطائف من (أوضنا) التى

يحيا فيها الانسان باعطاء شبق (١) الدخان من يد خادم فى القالب
تبيح اللون .

وأما السقوف فانها من الخشب النفيس ، ثم ان البيت فى
العادة مصنوع من أربع طبقات ، بعضها فوق بعض ما عدا البناء
الأرضى فلا يحسب دورا وقد يصل الى سبعة أدوار ، وغيرها تحت
الأرض من المخادع التى تستعمل أيضا لربط الخيل ، أو المطبخ
وذخائر البيت ، وخصوصا النبيذ والخشب للوقود .

ثم ان البيت عندهم كما فى بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة
مساكن مستقلة فى كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل
مسكن متنافذ (الأوضات) . وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت
الى ثلاث مراتب . المرتبة الأولى : بيت عادى . والثانية : بيت لأحد
من الكبار . والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة
ونحوها ، فالأول يسمى : بيتا ، والثاني يسمى : دارا ، والثالث
يسمى : قصرا أو (سراية) .

ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى الى ثلاث مراتب
أيضا : المرتبة الأولى : البيوت التى لها حاجب ، ولها باب كبير يسه
دخول العربه منه ، والثانية : البيوت التى داخلها دهاليز ولها
بواب ، ولا يمكن أن تدخل العربه من بابها ، والثالثة البيوت التى
لا بواب لها ، أى لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ، ووظيفة البواب
فى باريس أن ينتظر الساكن الى نصف الليل ، فإذا أراد الساكن
أن يسه فى المدينة زيادة عن الليل ، فعليه أن ينبه البواب
لينتظره ، ولكن لابد أن يعطيه بعض شئ ، وليس على الحشرات
بواب أصلا ، وليس لها أبواب كما فى مصر .

(١) الشبق : انوبة مجوفة من عود خشبى يثت فى أحد طرفيها الحجر
الذى يوضع فيه التنغ وكانت تستعمل للتدخين فى ذلك العصر .

ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكرء ، حتى ان الدار
العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعنى نحو ثلاثة ملايين قروشاً
مصرية ، ثم ان كراء المساكن فى باريس قد يكون لمجرد المسكن .
وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها .

وآلات البيت عند الفرنسيين هى آلات الطباخة والمآكل
بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضييات ونحوها ، وآلة الفراش
للنوم ، وهو فى الغالب عدة طراحت احداها من الريش ، وملاية
فرشه تتغير كل شهر ، وحرارات الغطاء ، ثم آلات التجميل ، وتلقى
الزوار ، وهى الكراسى المكسوة بالحرير ونحوه
والشزلانات (١) المكسوة كذلك ، والكراسى العادية والآلات العظيمة
المنظر ، كالساعات الكبيرة المسماة عندهم : « بندوق » وكأواني
الأزهار العظيمة ، وغيرها من أواني القهوة المموهة بالذهب وكالنجفة
المعلقة التى تنتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التى لها باب
من (القزاز) يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد ، وكل
انسان له خزنة كتب سواء الغنى أو الفقير حيث ان سائر العامة
يكتبون ويقرءون .

والغالب أن الرجل ينام فى (أوضة) غير التى تنسام فيها
زوجته ، اذا تقادم الزواج .

ومن العوائد التى لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور
أقاربه تفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة الى الإقامة فى
الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك
وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة ، ولكن لا يدخل
أحد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص أو شخصين
أو أكثر ، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس فاذا طلبها الانسان

(١) التى يسمى واحدا بالشازلون . أى الكراسى الطوال .

ممن يعرفه أعطاها له ، فترى فى البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأفاربه ، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيه من الامور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور التى لاتمتاز عن الناس الا بعدم النطق ، وفيه مصور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطنة وكل الأشياء الغريبة ، وأغلب الأشياء الموجودة فى حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لانفاستها بالمادة مثلا سائر الفراش كالكراسى والأسرة حتى كراسى الملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ، ومظلية بالذهب الا أنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلاطنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة ، فمبنى أمور فرنساوية فى جميع أمورهم على التجمل لا على الزينة واطهار الغنى والتفاخر .

ثم سائر الأغنياء « بباريس » يسكنون فى الشتاء فى نفس المدينة وقد أسلفنا فى ذكر طبيعة اقليم « باريس » أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران فى القيعان (والأود) وأما فى مدة الحر ، فمن له يسار سكن فى الخلاء ، لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة ، ومن الناس من يسافر فى بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ، ليستنشق رائحة البلاد الغربية ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها . خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل ، أو مدة الفراغ ، يعنى البطالة ، حتى النساء فانهن يسافرن وحدهن ، أو مع رجل يتفق معهن على السفر ، وينفقن عليه مدة سفره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى منهن من بلاد الافرنج الى مصر ، ليرى غرايبها من الأهرام والبرابى (١) وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع الأمور . نعم قد

(١) المسلات .

يوجد منهم بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من أنفسهن الأجنبي ، وهن غير منزوجات فيشعرون بالحمل ، ويخشين الفضيحة بين الناس ، فيظهرون السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ليلدن ، ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى في البلاد الغربية ، ومع هذا الأمر فليس بشائع ، وبالجمل « ما كل بارقة تجود بمائها » ففي نساء فرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من هى بضد ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا واناثا وعشقهم معلل ، لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك الا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج .

ومما يمدح به فرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ ، وان كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلاشء فان أهل الفلمنك أشد جميع الأمم نظافة ظاهرية كما أن أهل مصر فى قديم الزمان كانوا أيضا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولم يقلدهم ذراريهم وهم القبضة فى ذلك .

وكما أن باريس نظيفة فهى خلية أيضا من السميات ، بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن انسانا فيها لدغته عقرب أبدا ، وتعهد فرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضما عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات (٢) الشبابيك دائما من (القزاز) حتى اذا أغلقت فان النور لايجب أصلا ، وفوقها دائما الستائر : للغنى والفقير ، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبية لسائر أهل باريس .

(٢) يريد ما يسمى الضرفة : المصراع .

الفصل الخامس

[فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب]

اعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة ، وهى فى الغالب صغيرة الحبوب ، الا اذا كانت منقولة من البلاد الغربية فيطحنونها فى طواحين الهواء والماء . ويخبزونها عند الفرن فيباع الخبز فى دكانه ، وسائر الناس لها مرتب يومية تشتريه من الخباز ، وعلّة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه لأن سائر الناس مشغولون فى أشغال خاصة ، فصناعة العيش فى البيوت تشغلهم .

ثم ان المحتسب يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفى المدينة وفى الحقيقة لا يمكن فقد العيش أبداً بمدينة باريس بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية .

وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والألبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدد الأطعمة ولو عند الفقراء . ثم ان المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لادخلها ، وحكمة ذلك أمران دفع الوحى ، ودفع أضرار البهائم اذا انفلتت . وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فانه أهون من ذبح غيره ، فانهم ينفذون السكين وراء زوره يعنى بين زوره ورقبته ، ثم يقطعونه بعكس ما نفعل . وأما ذبح العجول فانه مثله . وأما الثيران فيضربونها بمقارع من حديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ، ثم

يكررون ذلك عدة مرات ، فيقطع التور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن ، ولقسه بعثت خادما لى مصريا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتي ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بلاد الافرنج ، والا لذاق العذاب كالثيران التى رأها ! والعجول والثيران تكون من البقر اذ لا وجود للجواميس بهذه البلاد الا للفرجة .

وأما ذبح الطيور فانه على أنواع مختلفة : فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه الى غير ذلك .

وأما الأرانب فانها لا تذبح أبدا ، بل تخنق ليحقن فيها دهما .

وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحا مخصوصا ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول ، ثم من الأمور التى بها راحة للناس بمدينة « باريس » محال الأكل المسماة « الرسطراطور » أى « اللوكنجة » (١) ، فانها مستوفية لما يجده الانسان فى بيته بل أعظم ، وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضرا ، وفى هذه «السطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد فى « الرسطراطور » أنواع المأكول والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل .

وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالتباق العجمية أو الصينية ، لا فى آنية التحاس أبدا ، ويضعون على (السفرة) دائما قدام كل انسان شوكة وسكيناً وملعقة ، والشوكة والملعقة من

(١) يريد (اللوكاندة) : الفندق .

الفضة ، ويرون أن من النظافة (أو الشلبنة) (٢) أن لا يمس الانسان الشيء بيده ، وكل انسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح فيصب فيه ما يشربه من (قزازة) عظيمة موضوعة على (السفرة) ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر .
وأواني الشرب دائما من البلور والزجاج ، وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفي الثالث خردل الى آخره .

وبالجملة فأداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جدا ، وابتداء المائدة عندهم (الشوربة) واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب في الشرب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفي الغالب ، خصوصا لأكابر الناس ، أن يشرب من النبيذ قدر لا يحصل به سكر أصلا فان السكر عندهم من العيوب والردائل ، وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من العرقى ، ثم انهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرا في أشعارهم ، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلا ، فهم يتلذذون بالذات والصفات ، ولا يتخيلون في ذلك معاني ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكرارى ، وهى هزليات فى مدح الخمرة ، لا تدخل فى الأدبيات الصحيحة فى شيء أصلا .

ويكنر فى « باريس » شرب الشاي عقب الطعام ، لأنهم يقولون انه هاضم للطعام ، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفى عوائد أغلب الناس أن يفتتو الخبز فى القهوة المخلوطة باللبن ، ويتعاطوها فى الصباح - وإذا أردت بعض شيء يتعلق بالمآكل والمشرب فراجع فصل المآكل والمشارب فى ترجمتنا « كتاب قلائد المفاخر » - .

(٢) النظرف .

ثم ان الغالب أن ما يقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبا ، من الخبز ما تزيد قيمته على خمسة وثلاثين مليوناً من الفرنكات ، وتآكل من اللحوم نحو واحد وثمانين ألف ثور ، وأربعمائة وثلاثين ثورا ، ومن البقر نحو ثلاثة عشرة ألف بقرة ، ومن الضأن أربعمائة وسبعين ألف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة ألف خنزير ، ومن السمك نحو عشرة ملايين من الفرنكات ، ومن البيض نحو خمسة آلاف فرنك .

ومن غرائب الأشياء أن فيها التحليل على عدم عفونة الأشياء التي من شأنها العفونة ، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمس سنين من غير تغير ، وادخار اللحم طريا عشر مسنوعات ، وادخار الفواكه لوجودها في غير أوانها . ومع كثرة تفننهم في الأطعمة والفظورات ونحوها ، فطعامهم على الاطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة الا في الخوخ .

وأما خماراتها فانها لاتحصى ، فما من حارة الا وهى مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها الا اراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب ، الشراب ! ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم أضرار أصلا .

وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مار فى طريق فى « باريس » أن سكران صاح قائلا : ياتركى ، ياتركى ، وقبض بتيابى ، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى ، وقلت لرب الحانوت على سبيل المزح هل تريد أن

تعطينى بثمان هذا الرجل سكرًا أو نقيلاً؟ فقال صاحب
الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم ، يجوز التصرف في النوع
الانساني ؛ فما كان جوابي له الا أنني قلت : ان هذا الشخص
السكران ليس في هذا الحال من قبيل الأدميين . وهذا كله والرجل
جالس على الكرسي ، ولا يشعر بشيء ، ثم تركته بهذا المحل
وذهبت .

الفصل السادس

[فى ملابس الفرنسيين]

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج (البرنيطة) ، وأن نعالمهم فى الأكثر الصرم السوداء ، و (التاسومات) : وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الأسود ، وأما الفرنسيات فانهن فى الغالب أيضا على هذا الملبس الا أنهم لا يلزمون ملابسا خاصسا ، بل كل انسان يلبس باختياره ما تآذن له العادة يلبسه ، والغالب أن لبسهم ليس له زينة ، وانما هو فى غاية النظافة - وعن العوائد العظيمة : انتشار لبس القمصان والألبسة والصدريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق (الواغس) (١) فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر .

وملابس النساء ببلاد الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة ، خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلج فان حلين هو الحلج المذهب فى آذانهن ، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكماس ، وعقد خفيف فى أحيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أيديا ، ولبسهن فى العسادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو (الشيت) أو (اليفت) الخفيف ،

(١) يريد : الحشرات .

ولهن في البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ، ويرخين طرفيه
كالمآزر ، حتى يصل بطرفيه الى قرب القدمين .

ومن عوائدهن أن يحتزن من بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى
يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كنيفا . ومما أنشدته الحاجري
في ديوانه ، وان كان فيه خروج قوله :

ومزنىر ياليتنى أستأذه كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده والمسلمون بأسرهم فى أسرهم
فوحقه لولا رشاقة قده مارق اسلامى لشدة كفره
ومن العجائب أنه يمكن الانسان أن يضع فى الخسروقت
الحزام يديه فترى لدمته .

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من
البطن الى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به ،
ولهن كثير من الحيل .

ومن خصالهن التي لا يمكن للانسان أن لا يستحسنها منهن
عدم ارخائهن الشعور ، كعادة نساء العرب ، فان الفرنسيين يجمعون
الشعور في وسط رؤوسهن ، ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه .
ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن ،
فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدي ، حتى انه يمكن أن يظهر
ظهرهن ، وفي ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن . وبالجملة فلا يعد
ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهن أبدا
كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائما لايسات للشرابات ، الساترة
للساقين ، خصوصا في الخروج الى الطرق ، وفي الحقيقة سيقابهن
غير عظيمة أصلا ، فلا يصلح لهن قول الشاعر :

لم أنسه اذ قام يكشف عامدا عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لاتعجبوا ان قام فيه قيامتى ان القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيين هي علامة حزن نلبس مدة معلومة ، ولها محل معلوم فالرجل يضع علامة الحزن في (برنيطنه) مدة معلومة ، والمرأة في ثيابها والولد على فقد أبيه أو أمه يلبس علامة الحزن ستة أشهر وعلى فقد الجدة أربعة أشهر ونصعا والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال ، والخالة ، والعم ، والعمة ثلاثة أسابيع ، وعلى فقد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين .

ثم ان ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريبا ، ومن الحرير بثلاثة ملايين من الفرنكات ، ومن الفراوى بمليون من الفرنكات ، ولعلل السبب في ذلك هو أن الفراوى تشتري من خصوص باريس ، لأهل باريس .

ومن المتداول عند فرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردى الشعر ، بل قد يستعملونها في اللحي والشارب للتقليد ، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن « لويز الرابع عشر » ملك فرنسا ، حيث ان هذا الملك كان يلبسها ، ولا يخلعها من رأسه أصلا الا عند النوم ، ولا زالت الى الآن مستعملة ، لكن للأقرع أو ردى الشعر ، ومن الغريب أنها تستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة .

الفصل السابع

[فى منتزهات مدينة باريس]

اعلم أن هؤلاء الخلق حيث انهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فانهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية ، واللهو ، واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفننا عجيبا .

فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى « التياتر » (١)
(بكسر التاء المشددة ، وسكون التاء الثانية) ، « والسبكتاكل » (٢)
وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل ، فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى ، وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاتينية ما معناه باللغة العربية : « قد تصلح العوائد باللعب » .

وصورة هذه « التياترات » أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له (أود) موضوعة حول القبة من داخله .

Le Théâtre.

(١)

Le spectacle

(٢)

وفى بجانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه (الأود) بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخل البيت ، وهو منور (بالنجفات) العظيمة ، ونحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر . وسائر النساء والرجال المعدة للعب ، ثم أنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فاذا أرادوا تقليد سلطان صلا فى سائر ما وقع منه ، وضعوا ذلك المقعد على شكل (سراية) وصوروا ذاته ، وأنشدوا أشعاره ، وهلم جرا ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمتع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويمتدئون باللعب ، ثم ان النساء اللاعبات ، والرجال يشبهون العوالم فى مصر .

واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم ، وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التأليف الأدبية والأشعار ، ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الأشعار وما يديه من التوريات فى اللعب ، وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب .

ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغربية والمسائل المتسكلة ويتمقون فى ذلك وقت اللعب ، حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التى تلعب ، تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها ، ثم انهم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى (١) ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه ، واللعبة التى تظهر تكتب فى ورقة وتلصق فى حيطان المدينة ، وتكتب فى التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام وفى الليلة يلعبون اللعبات ، وبعد فراغ كل

(١) فى المطبوعة رسمت « الموسيقى » هكذا كلما ذكرت فى الكتاب .

لعبة ترخي الستارة ، فاذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم ألبسوا
لاعبا لبس ملك العجم ، وأحضره وأجلسوه على كرسي ، وهكذا .

وهذه (السبكتاكلات) يصورون فيها سائر ما يوجد ، حتى
انهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصورون البحر
ويجعلونه يتماوج حتى يتسبه البحر شبها كليا ، وقد رأيت مرة في
الليل أنهم ختموا (التياتر) بتصوير شمس وتسييرها ، وتوير
(التياتر) بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف ، حتى
كأن الناس في الصباح . ولهم أشياء أغرب من هذا ، وبالجملة
(فالتياتر) عندهم كالمدرسة العامة ، ينعلم فيها العالم والجاهل .

وأعظم (السبكتاكلات) في مدينة باريس المسماة « الأوبرة »
(بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة ، وفتح الراء) وفيها أعظم
(الآلات) وأهل الرقص ، وفيها الغناء على الآلات والرقص بإشارات
كانشارات الأخرس ، تدل على أمور عجيبة ، ومنها (تياتر) تسمى :
كوميك « فيغنى فيها الأشعار المفرحة .

وبها (تياتر) تسمى : « التياتر الطليانية » وبها أعظم
(الآلاتية) ، وفيها تنشيد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية ، وهذه
كلها من (السبكتاكلات) الكبيرة . وفي باريس « سبكتاكلات »
أخرى وهي مثل تلك الا أنها صغيرة .

وهناك أيضا (سبكتاكلات) يلعبون فيها الخيل والفيلة
ونحوها ، ومنها (التياتر) المسماة « تياتر فرنكوني » (بكسر
الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية) ،
وفيها فبل مشهور بالألعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا .

وكما أن أكبر (التياترات) « الأوبرة » فأصغرها (تياتر)
تسمى : تياتر « الكمت » وهي معدة لنزاهة الصغار كالحاوي في

مصر « والكمت » اسسم معليم هذه السبكتاكل (١) وكل اللاعبين (ص ٩٧) واللاعبات صفار السن ، وهذه (التياتر) يوجد بها كثير من (الشعبينيات) و (السيم) (٢) ونحوها ، ولو لم تستعمل (التياتر) فى فرانس على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة ، فانظر الى اللاعين بها فانهم يحترزون ما أمكن عن الأمور التى يفتتن بها المخلة بالحياء ، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر ، وأهل السماع ونحوهم .

ولا أعرف اسما عربيا يليق بمعنى (السبكتاكل) أو (التياتر) غير أن لفظ (سبكتاكل) معناه منظر أو منتزه أو نحو ذلك . ولفظ (تياتر) معناه الأصلى كذلك ، ثم سمي بها اللعب ومحلها ، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالى نوع منها .

وتشتهر عند الترك باسم (كمدية) وهذا الاسم قاصر الا أن يتوسع فيه ، ولا مانع أن تترجم لفظه (تياتر) أو (سبكتاكل) بلفظة خيالى ، ويتوسع فى معنى هذه الكلمة ، ويقرب من تصوير (السبكتاكل) أو هو منها مواضع ، يصور فيها للانسسان منظر بلد أو أراض أو نحو ذلك ، فمن ذلك (بانورمه) (٣) وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها ، ففى صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلا والرميلة تحتك ، وباقى المدينة ، ومنها (كسمورمه (٤)) ، وفيه صورة بلدة ثم أخرى وهكذا . ومنه (ديورمه (٥)) وفيه صورة دار ، ومنها (أورانورمه (٦))

Spectacles.

(١)

(٢) هى « الشعبينيات : يرد بها ألوان الشعودة ، ويريد بالسيم : ما ينسبه

خيال الظل .

Panorama

(٣)

Cosmorama.

(٤)

Uranorama.

(٦)

Diorama

(٥)

وفيه صورة الفلك الأعظم ، وسائر ما يحتوى عليه مصورا غلى مذهب
الافرنج ، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك ، فمنهسا
(أوروبره (V)) وفيه صورة بلاد الافرنج .

ومن المنتزهات محال الرقص المسماة « البال » وفيه الغناء
والرقص ، وقل ان دخلت ليلا فى بيت من بيوت الأكابر
الا وسمعت به الموسيقى والمغنى ، ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم
معنى أصلا ، لعدم معرفتنا بلسانهم ، ولله در من قال فى مثل هذا
الأمر :

ولم أفهم معانيها ، ولكن سجت كبدى ، فلم أجهل شجائها
فكنت كأننى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها
(البال) قسمان : (بال) عام ، ويدخله سائر الناس ،
(كالبال) فى القهاوى والبساتين ، (وبال) خاص ، وهو أن يدعو
الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى
مصر ، (والبال) دائما مشتمل على الرجال والنساء ، وفيه وقداث
عظيمة ، وكراسى للجلوس .

والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال الا اذا
اكتفت النساء ، واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ، ولم يكن ثم
كرسى خال قام لها رجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ،
فالأننى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل ، ثم ان الانسان
اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه أن يعيى صاحبة البيت قبل
صاحبسه ، ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته
أو نساء البيت .

ومن المنتزهات جمعية الناس ، كضمة (١) مصر ، الا أن فيها دائما آلات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملة فالموسيقى بالأصالة ، والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر :

هل العيش الا ماء كرم مصفق(٢)

ترقرقه في الكاس ماء غمام
وعود « بنان » حين ساعد شدوه

على نغم الأوتار ناي « زنام » (٣)

وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار اليه المسعودى في تاريخه المسمى : « مروج الذهب » فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض ، فليس كل قوى يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء . وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يعرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلينة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى أرض مصر فانه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا . وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها ، فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية ، وهكذا ، وسواء كان يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد.

-
- (١) الضمة : جماعة يسرون حول العريس ليلة العرس يفنون ويصفقون .
(٢) المصفق : الشراب المحول من اثناء الى آخر ليصفو .
(٣) بنان وزنام : موسيقيان ، والشعر للبحترى فى الخليفة التوكل .

ولا اثنان . بل يجيب رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسامة
أنفسهن من التعلق بشيء واحد ، كما قال الشاعر :

أيام من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام
وقد يقح في الرقص رقصة مخصوص بأن يرقص الانسان
ويده في خاصرة من نرقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها
بيده . وبالجملة فمس المرأة أياما كانت في الجهة العليا من البدن
غير عيب عند هؤلاء النصارى . وكلما حسن خطاب الرجل مع
النساء ، ومدحهن عد هذا من الأدب . وصاحبة البيت تحيي أهل
المجلس .

ومن النزه : المواسم العامة التي تصنع في الصيف ، ومبناها
على الرقص والآلات ، وتسيب البارود ، ونحو ذلك .

ومن المواسم العامة عندهم أيام نسمى أيام (الكرنوال) ،
وتسمى عند قبطة مصر أيام الرفاع (١) ، وهي عدة أيام يرخص
لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات ، فيتشكل الرجل
بشكل امرأة ، والمرأة في صورة رجل ، ويتراءى (الخواجة) في
صورة راع ونحو ذلك . وبالجملة فيباح سائر مالا يضر براحمة
المملكة وانتظامها .

ويقول الفرنساوية ان هذه الأيام أيام جنون ، ويدور بهذه
البلدة فحل أسمن فحول فرنسسا ، في موكب عظيم مدة أيام
الزفر (٢) الثلاثة ، ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه (بخمشيشما)
في نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم .

(١) الأيام السابقة للصيام .

(٢) أكل لحم الطيور ، كما يسمى في بعض بلاد مصر الى اليوم .

ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة . ففي باريس
نحو أربعة بساتين كبيرى يتمشى فيها العام والخاص ، فمنها حديقة
(التولرى) (١) التى بها قصر الملك ، وهى من أعظم المنتزهات ،
يدخلها المتجملون من الناس ، ويحجز الأسافل من دخولها فكأنها
مصدق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة يوما لما وصل اللثام ترابها
ومنها حديقة تسمى « الشمزليزه » (٢) ، ومعناه بالعربية :
رياض الجنس ، وهى من أرق المنتزهات وأنضرها ، وهى بسنان
عظيم يبلغ أربعين « اربانا » ، و « الاربان » هو قياس يقرب من
الفدان . ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فانها موضوعة بحيث
انك اذا مدت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك . وفى هذه
الروضة العظيمة دائما سىء من الملاهى لا يمكن حصره . وسائر أشجار
هذا البستان متصافة ، متوازية بعضها مع بعض ، رتببت بحيث انه
يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من
سائر الجهات . وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع ،
وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين ، وبينها وبينه
رصيف ، وبجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء ، وفيها كبير من
القهاوى (الرسطواطورات) (٣) ، يعنى بيوت الأكل وفيها
سائر أنواع الطعام والشراب ، وهى مجمع الأحباب والأكابر ، وبها
كثير من المرامح للخيول ، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينة ،
وفيها عدة آلاف من الكراسى بالأجرة ، يجلس عليها فى زمن الربيع
نهارا وفى زمن الصيف ليلا ، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد ،
فانه يوم البطالة عند الفرنسيين . وبالجملة فهذه الحديقة محل

Jardins les Tuileries.

(١)

Champs-Élysées.

(٢)

المواسم والأفراح العامة والزينات ، وبها نماشى سائر النساء
الجميلات (١) .

ومن المنتزهات المحال المسماة « البلوار » ، وهي الأشجار
المتصافة المتوازية ، وقد أسلفنا بيانها ، وهي محل يتماشى فيه سائر
الناس ، فى سائر الايام ، وفيه أعظم قهاوى باريس ، وتندور فيه
الآلاتية المنفلون بآلاتهم ، وفيه كنبر من محال (التيانرات) . وبه
أيضا ندور النساء اللواتى يتعرفن بالرجال ، سيما بالليل ، فهو
فى جميع الليالى ، وفى ليلة الاثنين ، يحوى كثيرا من الناس ، فترى
فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه فى ذراعها الى نصف الليل ،
ويصلح هنا قول الشاعر :

لا تلق الا بليل من تواصله فالشمس نمامة والليل قوام
كم عاشق وظلام الليل يستره لاقى الأحبة والواشون رقاد
وقال آخر :

أيها الليل طر بغر جناح ليس للعين راحة فى الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه بان عنى أولو الوجوه الملاح

ولا يمدح الليل الا من ترقب فيه وصال محبوبه ، وتفقد فيه
نيل مطلوبة ، بخلاف من كثر فيه حرقه ، وزاد أرقه ، وطال
سهاده ، وطار رقاده ، فانه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح ،
قال الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصبح منك بأمثل
فيالك من ليل كان نجومه على صفحات الجوشدت بيتهبل

(١) فى المطبوع : الجمالات .

وقال آخر :

ليلي وليلى نفي نومي اخلافيهما
بالطول والطول ، ياطوبي لو اعتدلا
يوجود بالطول ليل كلما بخلت
بالطول ليلي ، وان جادت به بخلا

وقال من يشكو من الليل :

يالليل طبل ، أو لاتطل لايسد لي أن أسهرك
لو كان عندي فمري ما بست أرعى قمرك

وقال آخر مثله :

يالليل طبل ، ياشوف دم اني على الحالين صابن
لي فيك أجسر مجاهد ان صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى .

ومن المنتزهات أيضا سوق نباع فيه الأزهار ، وفي هذا
السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النادرة
ولو في غير أوانها ، حتى ان الانسان يمكنه أن يجدد بستانا في يوم
واحد بأن يشتري سائر ما يحتاجه ، ثم يزرعه في يوم . وبالجملة
فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المنتزهات الا بصحة البدن .

الفصل الثامن

[فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس]

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان ، وكان الافرنج أحكم الأمم ، كثر اعنتناؤهم بهذا الفن ، وبتكميل آلائه ووسائله ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن ، كالحمامات والمحام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة ، كالعوم ، وركوب الخيل ، والألعاب التى يخف بها البدن .

والحمامات فى باريس متنوعة ، وفى الحقيقة هى أنظف من حمامات مصر ، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن فى الجملة ، وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات ، فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط . وفى بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للمعورة ، فانه لا طريقة أن يطلع انسان على عورة آخر ، حتى ان الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الانسان صاحبه . وليس فى دخول الانسان هذه المغطس الصغير لذة كالدخول فى الحمامات ، ولا يعرق الانسان بها أبدا ، اذ الحرارة لا توجد الا فى المغطس لا فى الخلوة أبدا وان كان يمكن أن يوصى الانسان على حمام بالبخار ، فانهم يصنعون له ذلك ولكن بشم آخر غير الشم المعتمد .

وفي الحمام صفان من الخلاوي : صف للرجال وصف للنساء ، وكما أنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة ، فإذا طلب الانسان حماما في بيته ، أو كان مريضا ، أو نحو ذلك ، فابهم يحملون اليه في عربة كالبرميل الماء البارد في شقة ، والساخن في أخرى ومعها محم ، فيوضع المحم في بيت الانسان ، ويملاً من الماء المسخن ، فيفتسل الانسان منه ، ثم بعد فراغه يحملونه الى بيت الحمام .

ومن الحمامات حمام يضع فيه الانسان بعض بدنه لبعض الأمراض ، فيسمى نصف حمام ، والحمامات بباريس كثيرة ، وأسهرها ثلاثون حماما تقريبا .

ومن أمور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهي ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مدارس لتخفيف البدن ، وجعله قابلا للأشياء العجيبة كالبهلوانية ، والمصارعة ، ونحو ذلك .

الفصل التاسع

[فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية]

اعلم أن مدينة باريس هى أعظم مدن الافرنج التى يرحل اليها الغرباء ، لتعلم العلوم خصوصا العلوم الطبية ، وقد ينتقل اليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها ، والعلوم الطبية التى تسمى أيضا علم الحكمة هى : علم الطب والجراحة والتشريح وفن (الفيسيولوجيا) (١) ومعرفة داء الانسان من حاله ، وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك .

والحكماء فى باريس كثيرون جدا ، حتى يوجد فى كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء حتى ان الانسان اذا أصيب فى الطريق بداء فانه لا بد أن يجد الحكيم حالا ، لكثرة الحكماء بهذه البلدة .

ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف ، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده ، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها اليه . ومن المرضى من يذهب الى الطبيب فى بيته . وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا فى بيته لتلقى الناس . ومن المرضى من ينتقل مدة معينة فى بيت يسمى بيت الصحة ، معد لمن يدفع قدرا معيناً فى نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك .

Physiologie.

(١)

وفى باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلى: يدخل من هذه البيوت عظام البدن ، كالأحذية ، فإنه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب ، فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل ، كما اذا كان انسان مقطوع أحد الأطراف ، فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أو الخشب شيئا فى محله .

وفى هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة ، لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس . وفى هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج اليه فى الولادة .

ومن المواضع المعدة للمرضى والنسب يوجد فيها الاطباء المارستانتات العامة ، فندخلها المرضى للعلاج والاقامة مدة المرض بلا عوض .

ثم ان الأطباء فى باريس فرقتان : احدهما أطباء عامة لمطلق الأمراض على تنوعها والأخرى لداءات خاصة . وذلك أن علم الطب متسع جدا ، فقل أن يشتغل انسان بسائر فروعها ويحققها ، فأحتاج أطباء الفرنسية الى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغى له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ، ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن ، حتى يجلب اليه من به داء يدخله شيء من ذلك الفن ، فلذلك يوجد فى باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة ، وأطباء لمرض العين تسمى : « المكحلاتية » وأطباء لأمراض الأذنين ، وأطباء لداء الأنف وتجيره ، حتى ان من أطباء الأنف من يمكنه بالحبلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحا .

وفى باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الانسانية ، للاستعانة على مداواة الانسان . وتفصيل ذلك أن فى باريس جماعة من الطبائعية ، تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الانسان يشتمل على

مادة سيالية ، يعنى جاذبية المغناطيس الانسانية ، يعنى أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس : وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات ، كالمسح ، فينعس الانسان ، أو تخييب حواسه ، حتى لا يحس بشئ ، فإذا غاب وكان مريضاً بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شئ أو بفتح شئ من بدنه من غير أن يشعر بشئ أبداً ، وقد جرب ذلك فى قطع ثدى امرأة ، بعد مغناطيسيتها ، فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية : انها ماتت بسبب آخر لا يألم القلع ، فانها عاشت بعده ، فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الامراض العصبية .

وفى باريس أيضاً حكماء لخصوص مداواة خلل العقل . أو لألم أعضاء التناسل ، أو الحصوة ، ولخصوص الامراض الجلدية المنفرة وغيرها ، كالجدام والجرب .
وفى باريس أيضاً حكماء لتوليد النساء ، فان العادة أيضاً فى باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة .

وبها حكماء لمعالجة البياضة التى تنزل بالعين ، والماء الذى يعميها . وبها حكماء لأوجاع الصدر وداء الفالج الذى هو شلل بعض الأعضاء ، فبدأونه بعلاج يسمى : « الاكمبكتور » (١) (بكسر الهمزة والكاف ، وسكون الميم ، وضم الباء ، وسكون الكاف ، وضم التاء) يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة ، فيخرجون بذلك شيئاً من الدم ، ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء . وبها حكماء لعلاج اختلال خلقية الانسان ، وهذا العلاج يسمى : « الأرتوبيدى » (٢) (بضم الهمزة ، وسكون الراء ، وضم التاء ، وكسر الباء ، وسكون الياء ، وفتح الدال) يعنى فن اصلاح خلل أعضاء الأطفال . فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه ، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة .

L'acuponcture.

(١)

L'orthopédie.

(٢)

ثم ان فروع العلوم الطبية كثيرة ، فالمشهور منها فن التشريح ،
وفن تمييز أمراض الانسان من حال طبيعته ، وفن الكيمياء
المخبرية ، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية ، وعلم الجراحة
الطبية ، ووضع المصاغة على الجراح ، والتضميد بالمراهم ، وفن
تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية ، وفن تطبيب ملازم
الفراش المبتلى بأمراض باطنية ، وفن معالجة النفساء ، ونوليد
الحامل ، وعلم الطبيعة التي تدخل الطب ، وعلم العقاقير والأدوية
المفردة أو المركبة ، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض .

ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة ، ومنها
مدرسة كبيرة تسمى « أكدمة الصكمة السلطانية ، وهي ديوان الحكماء
السلطانية وهي مجعولة لحاجة المملكة الفرنسية ، ومباشرة الأمراض
العامة الضرر ، كالأمرض الوبائية ، والأمراض التي يعتقد الفرنسيون
أنها معدية ، وكمراض فصل البهائم .

ومن وظيفة علماء « أكدمة الحكمة » معالجة سائر الناس
بماتجعلها المملكة اموقوفا على النفع العام ، كاشهار تلقيح البقرى ،
لاخراج الجدري ، ومنتحان الأدوية الجديدة ، والأدوية المكتومة ،
وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة ، لادخالها في
الأدوية . وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء
الفرنساوية .

ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بممارسات باريس في فصل
فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شيء من ذلك في الفصل السابق .

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة ، وتدير البدن ، حتى
تتم فائدة هذه الرحلة . وهذه النبذة ترجمتها في باريز لقصد
استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهي وان كانت
تخرجنا عما نحن بصدده ، الا أن منفعتها عظيمة ، وثمرتها جسيمة .

نصيحة الطبيب

المادة الأولى فى وصية صحاح البدن :

لاشك أن الأطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم ، ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم لأنهم رفقاء المرضى فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبية .
والدواء المجرب لمنع الاحتياج إليه هو اعتياد الكد والقناعة ولنذكر لك بعض أمور آخر :

الأول : لا تسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة أو دارا غائرة فى الأرض يسيرا ، فان كلا هذين الوضعين يجعل البسار رطبة ومضرة للصحة فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الأيام .

ارفع أرض بيتك بعض قراريط ، برمل أو حصى ، أو طوب مسجوى ، أو ما أسبه ذلك ، وتجنب البساء فى أرض مماسة للأرض أعلى منها . اجعل منافس الهواء الى الجنوب الشرقى أى اجعله بين الشرق والجنوب ، فان ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع .

الثانى : الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقانك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها فى غالب الأحيان لأن البرد للصحة أوفق من الحر، فأهل الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب والمريض يشفى فى غرفة مفتوحة لسائر الرياح ، وربما هلك لو كان بجانب الحرارة .

الثالث : بركة الماء الراكدة اذا اشتد قربها من البيوت فانه يتصاعد منها أبخرة لا تناسب الصحة ، بل تؤذيها أو ربما قتلت ، وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع .

الرابع : السكر يرفعى البدن ويحرقه ، ويسرع بالمشيب ،
فنصيب من ينهمك على شرب الخمر وغيرها من المسكرات أن يصاب
بداء الذبول وبقصر الأجل .

الخامس : من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر
والبرد ، ونزول المطر السريع أو نزوله باردا في وسط الأيام
الحارة ، فأولى ما يطرد هذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه
الفصل ، فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ، ولا تعجل خلعها
عند دخول الربيع ، وإذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء
الفاتر ، فإن لم يبتل الا عضو فقط فاغسله وحده .

السادس : احذر اذا اشتبهت حرك أن تمكث في موضع بارد
أو تشرب ماء شديدا البرودة ، والا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل
في الباطن ، ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج (١)
المحرق وغير ذلك ، فاذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها ، فالواجب تداركه
لعله يخف فأول ما تحس بمبادئ العلامات فضع القدمين في ماء
هين الحرارة ، وطر بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق أو الصدر
أو البطن واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسبر اللبن وتعاطى (الشوربة)
التي صورتها أن تأخذ قبضة من زهر « الخمان » وتضعها في اناء
خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء
مغلي وغط الاناء ودعها تبرد ، فمتى بردت هذه (الشوربة) فصفها
بخرقه وذوب فيها أوقيتين من العسل ، فاذا فعلت ذلك فقد غنمت
ما حرمت منه الطبيب من الدراهم ، فإن ما تعطيه له منها ذاهب عن
يدك ، وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك في هذا الداء شيئا .

(١) القولنج : مرض معوي مولى يعسر معه خروج الثفل والريح .

المادة الثائية فى الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض فى الظهور :

اعلم أن كثيرا من الناس باعترناء فاسد يريد أن يداوى المرضى فيهلكهم ، فأول ما يبدو قليل من الحمى أو القيء فلا يجد أحسن من تعريق المريض فيضغطه تحت أغطية ثقيلة ، ويحبب عنه الهواء ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة وربما سقاه خمرا حارا أو حلوا فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك ؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمريض ؟ نعم ، قد يكون العرق به الشفاء لكن حين تكون الأمراض قد صدرت عند انحباسه أو بعد تقليل هذه أو ازالنها بكنرة تعاطى (الشوربات) وعلى كل حال فلا بد من ادخال الهواء اللين فى موضع المريض : لما أن حاجة الانسان الى الهواء كحاجة السمك الى الماء ، و (الشوربات) الحادة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيسسه ، والخمر هو سم حقيقى فى الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من (الشوربات) الرطبة الباردة فانها تذيب الأخلاط المفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة ، وتنظف المعدة ، وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى القيء فيعطيه المرق : فيضاعف أله مع أن من الحقيقة المقررة عند أكابر الأطباء أن المريض الذى به خمرة المعدة كلما أعطوه من الأغذية زاد ضعفه ، وهذه الأغذية اذا انفسدت بالأخلاط المعفونة التى تختلط معها فى الجوف تنقلب مرضا جديدا ، فما يتعين فى شفاء المريض هو ما يضعف المرض ففى كل عشرين مريضا يموتون فى الأرياف فأكثر من النلتين يمكن أنه كان يشفى بلاشئ لو كان فى موضع مستور من مضار الرياح ، وكان لا يشرب الاماء مبردا • ولكن لا مفر من القدر • وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر ، وقللة النشاط وعدم شهية الأكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل ، عديم الراحة غير المصلح القوى بل وثقل الصدر والميل الى البرودة وتيسر العرق غير

المعتاد وانقطاع العرق المعتاد ، وعند ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرة بأربعة : الأول ترك سائر الأسغال الشاقفة والمداومة على الأسغال الهينة • الثاني : تفليل أكل المغذيات أو اجتنابها لا سيما ترك اللحم والمرق والبيض والنبيد • الثالث : اكنار الشرب يعنى أن يشرب كل يوم قزاة فأكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة أو من الماء الفانر المخلوط فى كل قزاة اما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد أو بفنجان خل أو بملاعق من العسل • الرابع : الاحتقان بماء فاتر أو بهذا الدواء وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش أو من زهر الخبازى وتغمرهما ونرش عليهما نصف (قزاة) ماء مغلى ونصفيها بخرقة وتضيف عليهما أوقية عسل •

المادة الثالثة : فى الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض :

اعلم انه ينبغى للمريض اذا تلبس بالبرودة ، أو القى (١) أو الألم أن يلزم الفراش والجلوس ، وأن يتغطى زيادة عن عادته ، وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن (الشوربة) السابقة، فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة، حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم الا الغطاء المعتاد •

ثم ان بعض أهالى القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا ، ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب ، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين ، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الأحيان ، الا فى مدة الحر واشتداد الحمى فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش ، وللغطاء ملاحف أو أكسية أقل خطرا من الريش فهذا هو ما يريح المريض •

(١) فى الأصل : العى •

وينبغي الحذر من تسخين هواء محل المريض ، ومن كثرة الناس ، والغط ، ومن الكلام معه الا على قدر الحاجة ، وينبغي فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة فى النهار ، وربع ساعة بالليل ، وينبغي مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ، ولكن لابعاد المريض عن جريان الأهوية فلتسحب عليه ستائر فراشه ، أو ليحجب عن الهواء بكيفية أخرى ، وفى زمن الحر ينبغي ابقاء طاقة من الطيقان مفتوحة .

ويحسن أيضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محمأة .

وينبغي فى الهجير ، والمريض متعب بالهواء الحار ، أن يرش بلاط غرفته ، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه ، تعمس فى اناء فيه ماء ، لتكون مسقية .

وليجنب المريض تناول الأطعمة المغذية ، ولا يأكل الا يسيرا من خفيف الشريد المنضج أو الأرز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح ، ولا بأس فى الصيف بالأنمار المستوية وفى الشتاء بالنتفاح المنضج ، أو البرقوق والاجاص ، بعد تيبسهما وطبخهما ، فهذه الأنمار اذا أكلت بلا اكنار منها تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهى الأغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب ، والمبرد الذى ذكرناه سابقا ، ولا بأس أيضا أن تضع فى نحو (قزاة الماء) طاسة من عصير الفواكه التى ذكرناها قريبا .

وينبغي للمريض أن يشرب كل يوم (قزاتين) من ماء فأكثر ، وأن يتناول فى المرة يسيرا ، ففى كل ربع ساعة يشرب فنجانا ما لم ينم . واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففى اعتدال الزمن يكون فى مزاج طراوة نسيم الغرفة .

ولو امتنع المريض من حاجة الانسان جملة أيام ، أو لم يبيل بكثرة أو خرج بوله أحمر ، أو خلط فى كلامه ، أو كانت (حمته)

قوية ، أو كان وجع رأسه أو كليته شديدا أو كانت بطنه متألما ، أو كان محتاجا كثيرا الى النوم فليحتنقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره فى المادة الثانية ، فالاحتقان شفاء المحموم الا اذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتنقن .

وإذا خف المرض فينبغى الخروج من الفراش فى اليوم ساعة فأكثر ، كما يمكنه ، ولكنه لا أقل من نصف ساعة ، ولا ينبغى ترك فراشه وهو متلبس بالعرق .

ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم ، وتغيير ما على بدنه كل يومين ، اذا تيسر ذلك . ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك ، واعتقاد انه يخشى على المريض من خروجه من فراشه ، فيتركه فى ثيابه المتسخة . وهذه الثياب لا تقتصر فى أضرارها على ابقاء أصل المرض فقط ، بل تقويه . (ولو) قيل ، ان المريض تعبان جدا . وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فانه يزيد مابقى من قوته ، ويسرع تخفيف ألمه .

المادة الرابعة : فى معالجة الناقه :

اعلم أنه مادام بالانسان قليل من الحمى فلا يتناول الا الأغذية الخفيفة التى بينهاها ، فاذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها كقليل من اللحم الطرى ، أو السمك ، أو المرققة أو البيض. حين النضج ، فهذه الأغذية تصلح القوى بشرط عدم الاكثار فيما يتناول منها ، والا فتبطل الصحة : لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة الا ليسير الهضم ، فلو أعطيتها فوق ما فى قوتها لم ينهضم سائر ما يدخل فيها ، بل يفسد ، وقوام البدن انما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل اليها فقط ، فينبغى للناقه أن يكون كالمريض فى تناوله قليلا فى كل مرة ، ولكن فى غالب الأوقات ، وأن لا يتعاطى فى المرة الا جنسا واحدا من الأطعمة ، وأن لا يكتر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل فى مضغ ما يتناوله من الجوامد ،

وأن لا يكتر من الشرب ، وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الأنبذة .

وليسر على قدر ما يستطيع ما شيا أو راكبا عربة أو فرسا ، ومن العبت ترك ركوب الخيل في هذه الحالة لمن يملك الخيل ، كأغلب أهل الأرياف . وإذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبل ، فهو ربما يضر الهضم ، وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام في المساء ، لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ، نعم اذا جاوز يومين من غير خروج شيء فليحتقن نالت يوم ، أو قبله ان علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة ، أو الانتفاخ ، أو ضيق الصدر ، أو وجع الرأس ، وينبغي لمن قام من مرضه جديدا ألا يسرع في العود الى شغله فان لم يصبر الى تمام عافيته طال ضعفه، فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فان لم يتحفظ على نفسه ، والا أصابه مرض الذبول فينبغي حين ارادة الأخذ للمبادئ مراقبة العواقب .

المادة الخامسة : في وصايا عامة على الصحة :

اتخذ القناعة في الأكل ، فمن لم يقنع لا يشبع بل يهاك نفسه . قيل :

« من أرحى على الطعام طويل عنانه، حفر مقبرته بحدة أسنانه »
لا تأكل دون مرتين في اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمسا .

لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للمسلم ست ساعات أو سبع، وللضعيف والصغير أطول من ذلك .

تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما باعتماد تطويل النوم .

النظافة نصف الصحة ، فلتكن في البدن والثوب والمسكن
والغذاء والمتاع .

لا تمضغ الدخان ، ولا تنتشق به فكترة اللعاب الذى يكسبه
للطبيعة مضعفة على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم ،
ويتثن النفس ، وتسود الأسنان ، وتفسد ، وقد شوهد أن كثيرا
من الناس اعترته الحماسة بالاكتثار من شرب الدخان أو سُمّ النشوق .
ايك والانهماك على تعاطى الخمر والمسكرات سيما أيام
الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من
تعاطيها تمر فى أدنى زمن ، ويعقبها وهن ، وذلك كما أن النار تذكو
إذا أكترت من نفخها وترعى الوقود سريعا ، ولا تعطى الحرارة
الا درجة .

وأما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت الصيف فعليهم تغطية
وعوسهم وأن يتداركوا أشغالهم .

المادة السادسة : فى معالجات لجملة علل وأمراض :

الأول : الزكام والنزلة . يقال : هذا لبس بشيء ، ان هو
الا زكام أو نزلة . نعم ، نسلم أن الانسان لا يموت بذلك ، لكن
يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له .

ومن كلام بعض الحكماء الأقدمين : يهلك بالنزلة والزكام أبلغ
مما يهلك بالوباء . وعلاج ذلك : استعمال الشربة المذكورة فى المادة
الأولى ، أو تعاطى سلاقة الخمان التى ربعها أو ثلثها لبن ، وينبغى
قبيل النوم وضع الرجلين فى الماء الفاتر ، ولو انحبست البطن تعين
الاحتقان . وينبغى الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة ، وتعاطى
اليسير فى المأكول ، ولا بأس بتعاطى بعض طاسات من خفيف مرقة
الخشخاش الأحمر . وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى

المحروق ، أو الخمر المعطر ، أو الحلو ، مع أن هذا كالتقاء الحطب
فى النار ، اذ هذه الأشربة أقرب فى تمقيط هذا الداء من ازالته ،
أو ليس أن هذا الداء حرارة وهى تزداد بهذه الأشربة .

التانى : وجع الأسنان اذا كان الوجع ناسئنا عن فساد السن
فخبر علاجه ، كما قيل الكلبتان . فاللائق قلعه ، والا دام الوجع ،
وفسد غيره من الأسنان ، وربما جر ذلك الى فساد الحنك ، ولكن
لو اختير بقاء السن خوفا من قلعه فلا بأس أن نختبر ، بأن تلتخ
على موضع الفساد قطنة مبلولة فى قطرات من عصير القرنفل ، فان
ذلك يصلحها زمتا طويلا ، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها ،
ويمكن أيضا اصلاحها بأن تلتخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من
عرق عاقر قرحا ، وتتمضمض بسليق النبات المسمى : حشيشة
الفضة ، وأما اذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان منفسدة ،
فأدم الغرغرة بالشعير ، أو بالماء واللبن ، وتضميد الصدغ بالضماد
المطرى ، واتخذ الحميم جملة ليمال بماء فاتر ولا تشرب الألبنة
المخدرة ولا تكثر من الأكل . وأما اذا كان بالأسنان قرح فتتضيجه
بأن تديم فى فمك لبنا أو تينا مطبوخا فى لبن ، فاذا نضج فافتحه
فانه سهل غير مؤلم .

الثالث : السكتة اعلم أن داء السكتة يأتى الانسان فجاءة
فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ما عدا النبض ، وبه يعسر
التنفس ، وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة الى الطبيب . ومدة
انتظار حضوره يجب أولا كشف رأس المريض ، وتغطية ما عداه
من البدن بشىء خفيف جدا ، وجلب الهواء الطرى عنده ،
وفتح طوقه (١) بالكلمية ثانيا : يقام حسبما يمكن رأسه الى أعلى
ورجلاه الى أسفل . ثالثا : يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش

(١) الطوى : (اليافة) : الجيب .

الطرية والملح • رابعا : اسقه كثيرا من الماء حسب الامكان • خامسا : ابعاده عن الأشربة المخدرة كالخمر ، وكذلك الماء المعطر شربا وضمادا وسعوطا • سادسا : عدم مسه وتحريكه الا للضرورة • سابعا : عصب الرجلين تحت الداغصة ، وهى العظم المدور والمتحرك فى وسط الركبة ، حتى ينجب الدم عن الصعود الى الرأس ، وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع ، كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو فى هذه الحالة قليلا جدا ، وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء ، وأن ينجب الأشياء الغزيرة المائية ، وطيببات الروائح والحوامض والأشربة المقوية والقهوة ، وأن يأكل قليلا من اللحم كثيرا من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا ، كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لا يكثر من السخونة فى (أودته) أو حرارة الشمس ، وألا يتأخر فى النوم أو فى القيام منه ، وأن لا يلبث فوق ثمان ساعات فى فراشه •

الرابع : ضربة الشمس ، هو مرض يصيب الانسان متى اعترض فى الشمس زمنا طويلا عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحترار البشرة واحمرار العيون ، وجمود الدموع، وضعف البصر عن الامتداد الى الضوء • وقد يحصل للمريض به سهر ، وربما أحس بالنوم وقلق (قلقا) شديدا • وفى الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمرريض لا يزال شديدا حتى يأتى الطبيب سريعا ، فينبغى فى مدة انتظاره أن تضع رجل المريض فى ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام ، أو حماما كاملا ، واحتقنه بأعشاب مطرية واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء ، أو اسقه ماء مخلوطا ببسبر الخل • وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافى المخلوط ببسبر الخل ، والطح على جبهته وصدغه ورأسه خوقة مطراة بماء بارد واخل معا •

الخامس : نهش السميات • أولا أخرج الزبان اذا لصقت

بالمحل المددوغ • ثانيا : نعهده بالماء • ثالثا : الطخ عليه اما كزبرة
أو كرفسا أو زهر الخمان • رابعا : فان عظم الحرقان فأسرع ما ينفع
هو أن تبل خرقه صوف في سلاقة الخمان ونلطخها ، وهى هنية
الحرارة خامسا : أن تلصق على الوجع لبخة من سحق بزر الكنان
أو من لباب الخبز الممزوج بالبن أو العسل •

السادس : قاعدة يجب اتباعها في تعهد الصغار والأطفال •
حق على الأمهات اللاتي يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن
عوائد البربر من لف الأطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم ، وتنقل
أرجلهم أو أيديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن انسان أن اللازم لصحتهن
أن يحتسبن في أنوابهن وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن، وألا يتحركن،
كالمسلسل ! فلأى شيء يصنعن ذلك بأطفالهن ، وهم ضعاف ،
فليطلقنهم يندركوا وليعرضن أطرافهم للهواء • من يتوهم من غير
مستند أن الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتهما
ربطهما كتبفهما على ذلك الوجه ، أو ليس أن حكيم تربية الآدمي
كغيره من باقى الحيوانات ؟ •

السابع : السم بالفطر (١) وهى جنس ردىء من الكمأة ، كثير
من الناس من يهلك بميله الى الفطر ، وكان الأحسن فى حقهم يقينا
أن يتجنبوه • وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيرا من
الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها ، وأعمال هذا النبات السمي لا يظهر
الا بعد مضى ست ساعات الى اثنى عشرة ، فأول ما تحس بها أطلب
الطبيب وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من الطرطر
مقء أى ملح الطرطر : المقء بعد تذويبه فى طاستى ماء •

الثامن : السم بالزنجار • اعلم أن آنية النحاس التى تستعمل
فيها المطبوخات هى خطيرة بسبب زنجرتها سريعا ، والزنجار سم

(١) يسمى بنات أوبر •

قوى ، فلتبيض أو انيك وقتنا بعد وقت بالقصدير ، ولا تترك الاطعمه تبرد فيها ، خصوصا اذا كان بها الخل أو الحمض أو الحريفات أو الدسمة ، فاذا اعتراك وأنت محترز عن ذلك قولنج أوقىء فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض فى (قزازتى) ماء ، واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقايأ السم ، فان لم تجد البيض فأكر من شرب اللبن فان عدمت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ •

التاسع : داء الكلب ، وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة فى الزئاب والشعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب • وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للادميين وغيرهم من الحيوانات • وعلامة الكلب الكلب أنك تراه أولا كسبا ذابلا مدة أيام ، فيختفى ، ويسلك المحال المظلمة ، ولا ينبج ، بل يخفى ويترك المآكل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ، ويجرى من جهة الى أخرى ، ويقف شعره ، ويبتل لسانه من اللعاب ، ويتدلى من فمه ، وينعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات ويهم أن يعض سائر الناس ، حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مصارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها فى عميق من الأرض •

ومتى عض هذا الكلب الانسان فان الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة ، كأنه غير متسجم ، وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهى ثلاثة أسابيع الى ثلاثة أشهر يحس بالجرح وجع مكتوم ، فينتفخ أثره ، ويحمر ، وينتفخ ، ويقيح ، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة ، ويدوق المريض الكتابة والخدر والكسل والبرودة ، ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، يضطرب فى نعاسه ، يعطش عطشا مهلكا ، ويقاسى اذا شرب ، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ، ويبح صوته ، ثم يجن ويموت • وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما ، بل معظم المبتلين بهذا الداء اذا أحس هجومه عليه ينصح

الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر • وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة ، فيتمنى ولو الموت •

ومعالجته هي : أن أول ما يعضه الكلب تسرع الدواء فيه ، فان توانيت سرح السم الى الدم ، ولا يجدى التطيب شيئا ، وذلك هو أن تستخرج الدم من الجرح بعد كشفه ، وتغسله بماء مملح ، وتكويه بحديدية بعد احراقها فى النار حتى تبيض بعد الاحمرار وتغرزها فى سائر أقطار الجرح ، فلو بقى جزء من الجرح غير محكم الكى كان الكى كالا شىء ، ويصح أن تستعمل بدل الحديدية المحرقة دهن الزاج فتدخله بين شفتى الجرح وتجريه فى سائرته ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقه مدهونة بالقيرووطى ، أى المرهم ، أو بالزبدة الطرية ، واعلم أنه يجب غسل الثياب المنقوبة بأسنان الكلب الكلب ، لما أنها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه • وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة فى هذا المرض الشديد ، فلا تتردد ، أو تخف قليلا من الألم الذى يطرد غيره من الألم الشديد ، أو الهلاك المزعج ، وأيضا لو طلبت الحكيم لاثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفة ، ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء فى أى حيوان معضوض بكلب كلب •

وأزل ما على الجرح من الشر ، ولو كان المعضوض أذنا أو ذنبا فلتقطعه ولتكوه على ما سبق موضع القطع • وينبغي أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرها •

العاشر : الاستعانة على افاقة الغريق •

لا تياس من افاقة الغريق الا اذا أخذ بدنه فى العفونة ، فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، أو ذهب حركته بالكلية ، أو فقد أمارات الحياة فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات

الأخوة : فقبل كل شيء اطرده من اجتمع عليه من الخلق لأنه يضيق الصدر ، ويحجب الهواء .

ثانيا : لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه ، بحيث يكون وجهه الى أسفل ، وافتح شفثيه ، حتى يخرج بسهولة الماء الذى قد دخل من الفم أو الأنف ، وارفع رأسه مغطاة بفلنسة من صوف ان تيسرت ، وادرج باقى بدنه فى نحو ملحفة .

ثالثا : أنقله سريعا الى أقرب موضع .

رابعا : بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن، ولو بقطعها بآلات ان لزم .

خامسا : افرش له عنده ذلك بعض طراحات و (مخدات) بها بعض صلابة واجعلها قريبا من نار متقدة ، وضع فوق الطرايح ملحفة من الصوف ، ورقده الغريق فوقها مرفوع الرأس ملفوف البدن .

سادسا : ذلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقه صوف مدفأة يابسة ، ثم ذلك ، بالمئات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه خصوصا على السرة وما حولها ، والأولى خصوصا فى الشتاء أن تسخن عاجلا ماء ، وتملأ منه مثنائات (١) على النلنين من ماء هين الحرارة ، وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة .

سابعا : مدة ذلك أو عقب وضع المثنائات ينبغي أن تدخل الهواء فى صدره ، بأن تضع قصبه أو ريشة فى فم المريض ، أو فى إحدى طاقتي أنفه ، مع فتح الأخرى ، وانفخ فى تلك القصبه بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فان كان النفخ فى الفم فاقبض الأنف ، ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ، ليخرج منه الهواء أحيانا .

(١) زجاجات .

ثامنا : أشممه القلى البخارى ، يعنى الروح البخارية من ملح
النشادر ، بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومة فى صورة فتيلة
وتشربها من (قرزاة) قلى بخارى ، وتعرضها تحت أنف الغريق
أو تداخلها فى منخاره ، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق .

تاسعا : ألقه ان أمكن يسيرا من روح الأنبذة المخلوط بالكافور ،
وربما مكث هذا المانع فى فمه يسيرا من الزمن ، ثم بلعه ولكن لا تملأ
فمه منه حتى يتعسر بلعه .

عاشرا : لو بلعها فأعظه أكثر منها فلو تحركت معدته من غير
وجود قيء ، وذلك مما يتعبه فأعظه ثلاث حبوب من الطرطر المقيء
مدوية فى ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فان تقاياً بهذه الكيفية فاسفه
ماء فاترا ، وان أنزل من المخرج شيئا فقهو بتناوله شيئا من الأنبذة .

حادى عشر : لو أبطأ عن الاحساس فاحقنه حقنة حريفة ،
وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان ، قدر نصف أوقية ،
ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله
نحو ربع ساعة وتحقنه به . ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف
طاسة ماء وطاسة خل ، وربع رطل من الملح المعتاد . وهذه كيفية
معالجة الافاقه للغريق ، وتدبيرها ممكن لكل انسان ، حتى يحضر
الطبيب ، فيعينهم أيضا ، ولو كانت مفيدة ، ففائدتها لا تحصل
الابعد التدبير مدة ساعات على التوالى ، ففائدة ذلك بطيئة خفية ،
ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا ، فمن الغرقى من لا يفيق
الا بدست ساعات أو سبع من مبدأ خروجه من الماء .

الحادى عشر : غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات
والآبار والمجارى ونحوها .

أولا : أخرج سريعا من أصيب بهذا البداء ، وضعه تحت الهواء .

ثانيا : جرده من التياب ، ورش على بدنه ماء باردا : أو ماء مشوبا بخل ، وهو أولى ، وأولى منه حامض الجير .

ثالثا : ألقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل .

رابعا : احقنه بحقنة ماء بارد ثلثتها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب .

خامسا : أدخل في أنفه طرف شعر ريشة ، وحركها بالرفق .

سادسا : أدخل الهواء في صدره بواسطة قصبية ، وانفخها بمنفاخ ، كما سلف في الغريق عند العمل .

السابع : اسلك سبيل النشاط والاستعجال في هذه المعالجة . فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من انتاجها ، ولما كان الموت لا ينكشف الا بعد مدة ، تحتم ادامة المعالجة حتى يتيقن .

الثاني عشر : غيبوبة الحياة بالبرودة :

اعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها في الانسان . فتجمد الأعضاء ، وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الانسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جدا وان كان لا ألم به أبدا ، فمباذبا هو الرعشة التي تكاد تصرع الانسان ، وصلابة الجسم . وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهاب الاحساس ، والتنذاد البدن . بالنوم ، وانقياده اليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدرج ، وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء الى حيز الأموات . وفي الحقيقة حركات الحياة ليست الا متوقفة ، فعليك أن تسرع في معالجته بدواء ، سواء ذهبت أمارات الحياة بالكلية ، أو بقي منها شيء . واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة افاقته تكون بالحرارة ، وهذا وهم فاسد ، لاضرار الحرارة بكثير من الناس . ولكن معالجته هي أن تلف أولا بدنه في محلفة من صوف ، وتحمله

الى أقرب ما يرتاح فيه من الأماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه فى فرش غير محمى • ثانيا : اذا كان عندك ثلج فذلك البدن مع رفق بشيء من ذلك ، مارا من القلب الى المفاصل ، ثم بعد لحظات أدلكه بدل الثلج بخرقه مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ورش على وجهه شبتنا من هذه المياه ثالثا : لو تعذر الثلج فضعه فى حمام فيه ماء بئر بارد ، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن • وهلم جرا ، فأفرغ عليه كل ثلاث دقائق ، حتى تذهب برودة الماء على التدريج ، ويصير فاترا معتدلا ، وأعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فان اسنسعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام ، حتى يصير فى درجة سخونة الحمام المعتاد • وما دام المريض فى الحمام فرش على وجهه يسيروا من ماء بارد بعد تدليكه بخرقه رقيقة • رابعا : الهواء فى صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ ، كما سبق فى الغريق • سادسا : أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد ، وألقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة • سابعا : اذا بقى بالمريض الخدر ، فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل وان كان نومه به سباتا فاحقنه بحقنة حادة ، وهى ما تقدمت فى شأن الغريق • ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمر والمسكرات القوية ، يمكن أن يتدارك به ابعاد هذا الداء ، مع أن الأمر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثرا من غيره بأفات البرودة •

الثالث عشر : غيبوبة الحياة بدخان الفحم ، كل من يمكث فى غرفة مغلقة موقد (١) بها فحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة ، فمبذوها يحصل للانسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعثره

(١) فى الأصل : مغلوفة موقود •

تعسر النفس ، ثم يقع فى ذبول ، كحالة الموتى ، فان عولج فذاك ، والا هلك .

ومعالجته هى أن تسرع الى تعريضه فى الهواء ونجرده من أثوابه ، وتنبمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجا بخل وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتذلك بدنه بها ، وتمسح وجهه ثم تعيد ذلك عدة مرات ، وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتجلا ، أو غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه فى باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرتين : الأولى بماء ممزوج بخل والثانية بماء ملح ، فان بقى بعد ذلك على حالته فذلك فقار ظهره بممسحة من عرف حيوان والطح شيئا من معجون الخردل على بطن رجليه ، وأدخل الهواء فى صدره بأن تدخل فى إحدى طائفتي أنفه فم منفاخ وليس فى الغالب يفوق المريض ، فان ساعدتك المقادير على افاقته ، وتنفخ ، والحال أن الأخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على ذلك ، وليس فى الغالب يفوق المريض فان ساعدتك المقادير على افاقته وظهر شيء من أمارات الحياة فضعه فى فرش عظيم التسخين ، فى غرفة بها الهواء والعقه شيئا من خير الأشربة .

الرابع عشر : فى معالجة الحرق أول ما يحترق عضو الانسان فليغمس العضو فى أبرد ما يمكن من الماء ، وان تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما بأسفنجة مملوءة منه ، وكلما تسخن الماء المستعمل فى ذلك الغسل فجدده ، وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ما ينتفخ من الدمايل بطرف ابرة واحذر أن تفشخها أو تسليخ البشرة ، ثم أطح على ذلك العضو المرهم المصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق ومحل هذا كله ما لم يمض نصف ساعة قبل غسل العضو المحترق فى ماء بارد ، والا فهذا الدواء يكون مضرا ، بل فى هذه الحالة لا بد أن تكتفى باستعمال المرهم الذى تنوب عنه الزبدة الطرية ، ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك .

الخامس عشر : فى الجدرى والتخلص من مجيئه بتلقيح
البقرى .

أمر الجدرى معلوم ، وكونه اما قاتلا أو مشوها ، لا سيما
بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما
لا تنقضى الا بانقضاء الأجل ، وهناك طريقة لتداركه قبل أو انه
مجربة فمن مرض بالجدرى مع وجودها فهو من سوء تفریط
والديه وإهمالهما ، فعلى أبى الانسان وأمه المبادرة لذلك ، فاذا بلغ
سن المولود سنة أسابيع الى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم
الجدرى بالتلقيح ولا عذر لهما ان أهملوا فى ذلك ، لقدرتهما على
مداواة ولدهما ، فلو تركاه حتى أصيب بالجدرى فقد فات أوان
استعمال تلقيح البقرى ، فيندمان حيث لا ينفع الندم .

وفى بعض الممالك تلقيح البقرى للأطفال معين على بيت المال ،
فلا كلفه فيه خصوصا على الفقراء ، فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا
عليه فى الحال ، ولا يتأخروا الى غد ، فربما فى اليوم القابل تحرك
سم الجدرى ، ولا يفتر بقول من يزعم أنه غير مضر شيئا ، فصحيح
التجربة أوضح فائدة استعماله ، ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل
بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط : كان التلقيح كان غير محكم
الوضع ، والحبات التى أخذت كانت غير تامة ، فاذا استعملته فى
المولود فأطلع الحكيم على حبات البقرى تتحقق اصابة استعماله
وعدمها ، واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم فهو أخف من شكة ابرة
ولا يمرض به الانسان ، ويصح استعماله لأى عمر كان .

والجدرى داء متوقع مدة أجل الانسان ، حتى كانه دين ماله الى
القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة الى استعمال تلقيح البقرى لمن
يريد التخلص من اصابته .

خاتمة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة ، فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، اذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة ، فما ثمرة الأموال لعليل ، لا يتمتع منها بشفاء الغليل . يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه ، ومع ذلك قد يكون خلافه غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه ، تفرغ الأمراض باب الخطير ، على نسق ما تفرغ باب الحقير . ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه . حكمة بالغة للحكم العدل ، ذى الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذى الطول . فهو الممرض والشافي ، والمبتلى والمعافي ، ها نحن الآن في حيز الحياة والثبات ، ولا ندرى هل نعلم غدا في زمرة الأموات ؟ فهذا سر خفي لا نصل الى فهمه ، كيف وقد استأثر به الله في غامض علمه ! فلا تثق بالمخايل الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فربما في أسرع من البرق اللامع ، تعثرينا الأمراض وتلزمنا المضاجع . وقدرتنا على القبض على الأجل ، وحفظ الصحة من الخلل . كاقتهارنا على عروج السما ، واتخاذ الأفلاك ملزما . فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد . العازم على الرحيل ، الجازم من الإقامة بالقليل . قد كان بالأمس نوبة الجار ، وستأتي غدا نوبة صاحب الدار ، ولا خوف علينا ولا حزن ، حيث كان خلاص ذمتنا حسن . هذا ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وسلم .

الفصل العاشر

(في فعل الخير بمدينة باريس)

اعلم أن غالب الناس ببلاد الافرنج وسائر البلاد التي تكثر
للصناعة والنجامة فيها يعيشون من كسب أيديهم ، فاذا حصل
للانسان منهم مانع كمرض أو نحوه ، فقد معيشته واضطر الى أن
يعيش من غير كسب يده ، كان يتكفف الناس ، أو نحو ذلك :
فشرعت المارستانات المعتدة لفعل الخير ، حتى ان الانسان لا يسأل
ما في أيدي الناس ، وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت
أهاليها فاحتاجت الى مارستانات أكثر من غيرها ، ومعلوم أن مدينة
« باريس » من أعمر المدن وأكثرها صناعة ونجامة ، فلذلك كثرت
مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها
وبخلهم ، لما تقلص عنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم
حاتم طي ، ولا ابنه عدى . ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة
الشهير بالحلم والندى الذي قال فيه الشاعر :

يقولون : معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يكن في دياره	من المال الا ذكره وجمائله
تراة اذا ما جئته متهللا	كأنك تعطيه الذي أنت نائله
هو البحر من كل النواحي أنيته	ولجته المعروف والبر ساجله
إذا مر بالوادي فتبكي تلاله	عليه وبالنادى فتبكي أرامله
تعود بسط الكف حتى لو انه	أراد انقباضا لم تعطه أنامله
ولو كان ما في كفه غير روحه	لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيراً
مما يحكى عن بنى العباس والبرامكة أصلاً ، فالملك المنصور المشهور
بالدوانقى (١) أكرم الكرماء بالنسبة اليهم ، نعم ان البلاد المتحضرة
يقبل اكرامها ، وأيضا يرون أن اعطاء القادر على الشغل شيئاً فيه
اعانة له على عدم التكسب .

وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات ، وأهله خمس
عشرة نفساً للمشورة العامة ، وفي هذا الديوان خمس نظارات :
النظارة الأولى : لمباشرة المارستان . النظارة الثانية : لمباشرة مهمات
المارستان ، والخدمة للمرضى والعقاقير العامة . النظارة الثالثة :
لمباشرة الأوقاف . النظارة الرابعة : لمباشرة الفقراء فى بيوتهم
واعانتهم . النظارة الخامسة : لمباشرة مصاريف المارستان وتوابعها .
ولا يسخر الانسان المارستان الا اذا أثبت مرضه . يقول الحكماء:
ومن قام من مرضه فى المارستان وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم
شفأؤه وترجع له قوته أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على
قوته ، حتى يمكنه الرجوع الى أشغاله .

وأعظم مارستان « بباريس » المارستان المسمى : « أوتيل ديو
يقرب أن يكون معناه « بيت الله » وهو موقوف على المرضى والجرحى ،
ولا يدخل فيه الأطفال ولا أرباب الداء العضال ، ولا المجانين
ولا النفساء ولا أرباب الأمراض المزمنة ، ولا المبتلى بالافرنجى ،
فان كل داء من هذه الأشياء له ما رستان خاص .

ومن المارستانات الشهيرة فى « باريس » مارستان يسمى
« سنلويز » وهو معد لأرباب الأمراض المزمنة ، ولأرباب الدمايل
والقوبة ، والحكة ، والجرب ، ونحو ذلك .

(١) المنسوب الى (دوانق) ، وهى جمع (دانق) كصاحب ، وهو سدس

الدرهم .

وقى باريس مارستان للقطاء ، يعنى الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم كأولاد الزنا ونحو ذلك .
« وبارس » مارستان أيضا للأيتام ، وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى .
فالذكور فيه فى جهة ، والاناث فى أخرى . ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم : أخوات الاحسان ، ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ، ولهذا المارستان ديوان يدبره فلا يوضع الصغبر فى هذا المارستان الا بأمر هذا الديوان ، وإذا بلغ الانسان احدى عشرة سنة فى السن فانه يخرج باذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة ومصرفه يخرج من وقف المارستان ، ولعلم الصنعة أن يتبنى الصغبر ، أى يأخذه وينزله منزلة ابنه ، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله .

ومن جملة مارستانات « باريس » مارستان موقوف لتلقيح الجدرى بوضع البقرى .

ومنها مارستانان يسميان « مارستانى الشيوخوخة والهزم » فأحدهما للذكور ، والآخر للنساء ، ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال ، موقوف على أربعمائة وخمسين مريضاً ذكراً وخمسمائة وعشرين مريضة » .

ومنها : مارستان العميان ، من أهل « باريس » أو غيرها من العمالات ، فلهم فيه الأكل والشرب ، وسائر ما يحتاجون اليه فى تعليمهم ونحو ذلك .

ومنها : مارستان المجانين ، وفيه (قسلة) (١) عظيمة تسمى مارستان السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدي

(١) القسلة : المستشفى .

أو الأرجل أو نحو ذلك ، وهو من أنظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيبا ، وجراحيا ، وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية .

ويوجد في « باريس » زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى « ديوان الاحسان » المقصود منه تكميل الخير الذي لا يمكن في المارستانات ، كما اذا أحرقت تجارة تاجر أو انكسر ، فانه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة .

وفي كل خط « بباريس » ديوان احسان ، والاحسان فيه قسمان : احسان حالى واحسان حولى ، فالأول يعطى للفقير الذى وقف حاله أو حدث له ما يعطله ، والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل . ومن فعل الخير بمدينة « باريس » أنه يوجد بشاطئ نهرها علب وحوائج بها روائح لتشميم الفريق والمغمى عليه والجريح ونحو ذلك ليفيق . ويوجد أيضا بهذه المواضع عدة رجال من أهل الخبرة ، لينهضوا لاسعاف من وقعت له حادثة معارضة .

ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة « باريس » أكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة ، لا لكل واحد على حدته فانه قد يشاهد فى طرقها أن بعض الناس الذين لا يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع فى وسط الطريق من الجوع ، وربما تراهم ينهرون السائل ، ويردونه خائبا ، زاعمين أنه لا يتبغى السؤال أبدا ، لأنه اذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة الى السؤال ، وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ، حتى انهم يتشككون فى صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم .

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا ، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد « الجنرال نى » نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من القروش .

الفصل العادى عشر

(فى كسب مدينة باريس ومهارتها)

اعلم أن المركز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به ، وصرف الهمة اليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة ، وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس فكأنهم فهموا قول الشاعر :

حب السلام يثنى عزم صاحبه عن المعالى ، ويفرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى الجو واعتزل
ودع غمار الملا للمقدمين على ركوبها ، واقتنع منهم بالأمل

الى أن قال :

فانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

ثم ان أعظم التجارات وأشهرها فى «باريس» معاملات الصيارفة والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو (الميرى) ، وصيارفة «باريس» ، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس ما يريدن وضعه ، ويأخذوا كل سنة ربحه المعين فى قانونهم ، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا الا اذا زاد عما فى القانون - وللانسان

أن يأخذ ما وضعه من المعاملة عند صياغة الدولة متى أراد • ومثل ذلك صياغة « باريس » فانهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة ، وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صياغة بيت المال الذين هم صياغة المملكة ، ولكن المال الموضوع عند صياغة المملكة آمن من الموضوع عند صياغة المدينة ، وذلك لأن صياغة المدينة يفلسون ، وأما صياغة الدولة فان ما يأخذونه يكون ديننا على الدولة ، والدولة دائما موجودة •

ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل « باريس » : جمعية تسمى « الشركاء في الضمانة » فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية ، كما اذا احترق بيته أو حانوته أو نحو ذلك فانها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته •

وفي مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية : فمنها معامل المعادن كأشغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ، ومنها معامل الصينى (والقرفورى) (١) ومعامل الشمع الاسكندراني ، ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة ، وشغل السخنيان (٢) ، ونحو ذلك ، وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا ، حتى انهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رؤوس الأشهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه •

وفي باريس عدة خانات عظمى ، توجد فيها سائر المبيعات ، ووكانل وحوانيت وبيوت للتجارة أو الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته ، وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر ، ولا يمكن أن يشرع الانسان في التجارة الا اذا دفع لبيت المال شيئا

(١) نوع من الصينى .

(٢) نوع من الجلد .

ولو هينا ، فيأخذ (نيشانا) علامة على الاذن له فى التجارة ، فيحتاج أن يكون معه (النيشان) ، وعلى تجارته .

وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الاشياء المبيعة ، ومعرفة الأثمان والقيم .

وفى هذا المكتب خمس عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من اقاليم عديدة ، وبمقتضى قانون ذلك المكتب أنه يدفع القدر المعين يقبل من اراد الدخول للتعليم من سائر الأمم .

ومن الأمور التى تعين على النجاحة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التى تسير بالدخان ونصب القناطر، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة (والتليغراف) وهى الاشارة ، ونصب البريد بالساعى ، والبريد بالخيول وغير ذلك .

فانظر الى مدينة « باريس » فان حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر ، وفى نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشى بالنار سريعة السير ، وبمدينة « باريس » جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال ، فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من « باريس » الى البلاد البرانية ، (ص ١٢٥) وتسمى « رولاجة » (١) ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه ، ويسمى « الدلجنس » ومنها عربات صغيرة للسفر الى المحال القريبة من « باريس » تسمى « كوكو » (٢) (بضم الكافين) ويدفع فيها على كل رأس قدر معلوم ، كالسفر فى السفن . وفى « باريس » عربات تستأجر الى أجل معلوم ، كيوم أو شهر أو سنة ، والعربات العادية فى « باريس » هى : الفياكرة « وهى ما فيها مقعد فيه

Roulage.

(١)

Coucou.

(٢)

سدلتان متقابلتان ، تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان يسحبانها « والكيريولة » وهى نصف « الفياكرة » فلها سدة واحدة : وركوب « الفياكرة » (١) أو « الكيريولة » تكون أجرته بالساعة ، أو يستأجر من محل الى محل آخر ، وأجرة محدودة لاتزيد ولا تنقص ، ووجودها فى سائر طريق « باريس » أكثر من وجود الحمير فى طريق القاهرة . وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى « الأمنيوسة » (٢) معناها : لكل الخلق ، وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق ، مكتوب على بابها أنها تمشى الى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدرا معيناً، وهى موجودة فى أمهات خطوط « باريس » ومن العربات جنس ينقل أمتعة البوت ، ومنها عجلات البياعين ويوسفونها ، ويدورون بها فى الطريق لبيعوها ، وهذه العجلات قد يسحبها حصان ، وقد يسحبها حمار ، وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه ، وبها أجناس آخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك .

وأما البريد المسمى عند الفرنسيين « البنسطة » فانه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها ، يسهل فيه اخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ، ويأتى ردها فى أسرع ما يكون . وتديرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فان المكاتب التى تبعث فى البلد وأعماله تصل الى صاحبها من غير شك ، لأن سائر نمرات البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى « النمرة » فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه الانسان تضعه فى محل المكاتب الموضوع فى كل حارة ، فأتى الساعي وبأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الأخرى ، ويأتى رده فى يومه .

ثم ان الفرنسية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان ،

Fiacre

(١)

Omnibu :

(٢)

فلا يمكن لانسان أن يفتح مكتوباً معنوناً باسم آخر ولو كان متهماً بشيء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه (ص ١٢٦) الحالة كثرت الرسائل بين الأجياب والأصحاب ، خصوصاً بين العشاق ، لأمن الانسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل اليه ، المعنون باسمه ، واعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة ، وبها أيضاً يحصل الوعد بالمواصلة . وفي باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعى أيضاً ، من غير خوف أبداً . ومن الأمور النافعة فى التجارات (الجورنالات) فيكتبون فيها كثيراً من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ، ويمدحونها ، ليروجوا السلع ، وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئاً فى نظير ذلك ، وسيأتى الكلام عليها ان شاء الله تعالى . وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ، ويرسلها مع خدم فى سائر البيوت ، ولسائر المارين ، بالطرق ويفرقها عليهم مجاناً ، وفى هذه الأوراق يذكر اسمه واسم دكانه ، وما عنده من المبيع ، ويعين القيمة لسلعته .

وبالجملة فى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا سواء كان خطيراً أو حقيراً ، ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقير ، فيها توجد سائر الأدوية مجهزة ، وسائر العقاقير التى على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصية .

وسائر الخلق « بباريس » يحبون الكسب والتجارة ، سواء الضنى والفقير ، حتى ان الصغير الذى لا يمكنه التكلم الا بالأشياء الصغيرة اذا أعطيته فلساً يفرح به ويصفق بيديه قائلاً . ما معناه بالعربية : كسبت وقتيت : ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسباً ، واذا كسدت تجارة أحدهم كما هو غالب فى تلك البلاد فسد حاله ، وآل أمره الى تطلب ما فى أيدي الناس ، وربما أخذ معه مكتوباً من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه

يستحق الاعانة ، ويكثر وقوع مثل هذا الأمر فى هذه المدينة وان
كثر أخذها وعطاؤها .

وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الانسان منهم عن الخروج
الى شغلها ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع الى الشر ،
والقلب الفارغ يسارع الى الاثم .

وأهل « باريس » أغنياء جدا ، حتى ان المتوسط منهم أغنى
من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرضون على الأموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين
أنه يزيد فى الأرزاق ، ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزداد فى رزق حريص ولو ركب العواصف كى يزداد

وقد يوجد بها من أهالى الحرف الدنيئة من إيراده كل سنة
أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو الممول
عليه فى أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير
اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار ، ولا شك أنه تأسس فى قلوبهم
قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ماعنده هاد ، ولا شفيع
رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

وهذا لا يمنع من أنهم يدفعون (الميرى) عن طيب خاطر ،
لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل انسان منهم ما هو
عليه قادر ، فمال (الميرى) هو قوام صورة المالك ، واحسان
مصرفه فى استحقاقه خير مما هنالك ، قال الشاعر :

والمال أس لقيام الصورة وخير منه صالح المشوره

ولما كانت رعينتهم رائعة كانت الدولة عندهم لها ايراد سنوى عظيم ، فان ايراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليوناً من الفرنكات .

ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير ، وتديير المصاريف ، حتى أنهم دونوه ، وجعلوه علماً متفرعاً من تدبير الامور الملكية، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف ، فان الوزير مثلاً ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادماً ، واذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره فانه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجها وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى : الدوق « درليان » وهو الآن السلطان الذى هو من أعظم الفرنسيس مقاماً ، وأكثرهم غنى ، له من الأتباع وسائر من طرفه من العساكر ونحوها (كالبستانجية) والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير ، والفرنساوية يستكترون ذلك عليه فانظر الفرق بين باريس ومصر ، حيث ان العسكرى بمصر له عدة خدم .

الفصل الثانى عشر

(فى دين اهل باديس)

قد تقدم لنا فى الشرطة أن دين الدولة هو دين النصرارى « القاثوليقية » وقد بطسل هذا الشرط بعد الفتنة الأخيرة ، وهم يعترفون للبابا الذى هو ملك رومة بأنه عظيم النصرارى وكبير ملتهم ، وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية كذلك هو دين غالب الناس عندهم ، وقد يوجد « بباريس » الملة النصرانية المسماة : « البروتستانية » وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها .

وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الاطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم ، أو أوجبه ، أو نحو ذلك ففى أيام الصيام فى « باريس » لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت ، الا ما ندر ، كبعض القسوس ، وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقى أهلى المدينة فانهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدا ، ويقولون : ان سائر تعبدات الأديان التى لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام . ولا تعظم القسوس فى هذه البلاد الا فى الكنائس عند من يذهب اليهم ، ولا يسأل عنهم أبدا ، فكأنهم ليسوا الا أعمدءه للأنوار والمعارف . ويقال : ان غالب ممالك الافرنج مثل « باريس » فى مادة الأديان . ثم ان « مسيو دسامى » لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : قولك ان الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وانهم ليسوا

نصارى الا بالاسم فيه نظر ، نعم ان كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان « باريس » ليسوا نصارى الا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بمبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون الا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون الا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، واذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آباؤه يؤمن بالله واليوم الآخر . ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم فى ورعهم وتقاهم على مراتب شتى : منهم من يشارك عامة الناس تصرفاتهم ، ويحضر معهم فى محافل اللذات أعنى « السبكتاكل » « والبال » ومجامع الأغاني ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عددا ، وان دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى .

هكذا انتهت عبارته والحامل له على ذلك : كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر ولا حكم له .

ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو بلاد النصارى « القائلية » : عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم .

ومن الخصال الذميمة : أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ، ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسيه يسمى كرسي الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه يذهب الى كرسي الاعتراف ، داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ، ثم يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له . وقد عرف عندهم أن أكثر من

يدخل الكنيسة أو يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والصغار ،
وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جآذرا وظبساء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة فأولهم الكردينال وهو بعد
« البابا » فى الرتبة ، وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون
« كردينالا » ، ثم بعده « المطران » ثم بعده « الأسقف » ثم
« الخورى » ثم « نائب الخورى » ثم « الشماس » .

وعند الفرنساوية أعياد دينية متنقلة : يعنى لا تقع فى يوم
معين كل سنة ، بل هى دورية ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد
الفصح .

فمن أعيادهم الغربية « عيد الرفاع » وقد تقدم ، ومنها عيد
ظهور السيد المسيح ، ويسمى عند الفرنسيين : عيد الملوك ، وذلك
أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول فى
عجينا ، ويقسمون الفطير على الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول
فى نصيبه فهو الملك ، فان جاءت فى نصيب رجل فانه يسمى باسم
الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار
من النساء امرأة يجعلها الملكة ، فتخاطب أيضا بذلك الخطاب ،
وان جاءت الفولة فى نصيب امرأة فانها أيضا تختار من الحاضرين
شخصا كالزوج لها ، وتطلق عليه اسم الملك ، فيكون سائر اكرام
الليلة للملك والملكة ، برسوم خاصة ، وقوانين مألوفة ، وهاته
الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة « باريس » حتى فى
بيت ملك الفرنسيين .

ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون فى عيد القربان
موكباً ويلبسون فيه حللا مطرزة ، ويدورون المدينة بشيء
يسمونه « البونديو » وكلمة « البونديو » مركبة من كلمتين :
الأولى : « بون » ومعناها : طيب ، أو عظيم ، والثانية « ديو »

ومعناها : الاله ، فكأنهم يقولون ان الاله حاضر في الجحفة (١).
التي بين أيدي القسوس ، والمراد عندهم « بالبونديو » عيسى عليه
السلام . والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذي
يدنس بلادهم ، ويزري بعقول أهلها . غاية الأمر أن العائلة السلطانية
كانت تعين القسيسين على هذه الأمور ، فتمثل الرعية لذلك مع
غاية الحط والتشنيع .

وللقسيسين بدع لا تحصى . وأهل باريس يعرفون بطلانها ،
ويهزءون بها ، ولهم أعياد آخر لا يسعها هذا الكتاب .

ثم ان لكل انسان من فرنساوية عيداً وهو يوم مولد القديس.
الموافق له في اسمه فاذا كان انسان اسمه بولص مثلاً فان عيدہ
يكون عيد « ماري بولص » ، فترى كل انسان اسمه « بولص »
يصنع وليمة ويشهر عيدہ ، وفي عيد الانسان يهادونه بأنواع
الأزهار .

(١) الجحفة : بقية ماء في حوض .

الفصل الثالث عشر

(فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع ،
وذكر ترتيبهم ، وإيضاح ما يتعلق بذلك)

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة « باريس » أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الأفرنج من يضاهى حكماء « باريس » بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا ، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : إن سائر الفنون العلمية التى يظهر أثرها بالتجارب ، معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : « الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها » .

وأما أغلب العلوم والفنون النظرية فإنها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية ، خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يموهونها . ويقوونها ، حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها ، كما فى علم الهيئة مثلا ، فإنهم محققون فيه : وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له .

ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات غير أن لهم فى العلوم الحكيمة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان

ردها ، وسيأتى لنا كثر من بدعهم ، وننبه عليها فى مجالها ان شاء الله تعالى .

وانما نقول هنا : ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث ، من الخلاف الذى ذكره صاحب متن السلم فى الاشتغال بعلم المنطق ، فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل « باريس » ديار شمس العلم فيها لا تغيب
وليس الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجب !

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها ، فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا ، فهى غير متشابهة . واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها .

وأما كتب الفرنسييس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبيها شرح ولا حواش الا نادرة ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى افهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان نفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الألفاظ ،

فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع مثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب ، فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفساء في محل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك ، ثم ان الفرنسيين يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف ، ويتسوقون الى معرفة سائر الأشياء ، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة اجمالا لسائر الأشياء ، فلبس غريبا عنها ، حتى انك اذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنسيين يبحتون ، ويتنازعون في بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفالهم فانهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعاني الغر وهو مراهق وافترض أبحار الفنون وليدا

فانك قد تخاطب الصغير الذي خرج من سن الطفولية عن رأيه في كذا وكذا ، فيجيبك بدلا من قوله لا أعرف أصل هذا الشيء بما معناه « الحكم على الشيء فرع عن تصوره » ونحو ذلك ، فأولادهم دائما متأهلون للتعليم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا في الفرنسيين على الاطلاق .

والعادة أنهم يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالبا في عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان في سن العشرين ، ولم يبلغ درجة التدريس ، أو يتعلم صنعته التي يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون

غاية التمكن ، وهذا السن فى الغالب تظهر به براعة الانسان وحسن
طالعه ، كما قال الشاعر :

إذا ما أول الخطى أخطا فما يرجى لآخره انتصار
إذا جاز الفنى عشرين عاما وما بلغ المراد فذاك عسار

فكان هذه (١) السن عند سائر الأمم سن انتهاء الناجب ،
فانظر الى الأخضرى فانه فى سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسالة
السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير فانه فى دون العشرين ييسر
صنف مجموعته فتورك (٢) على قول الأخضرى :

ولبنى احدى وعشرين سنه معذرة مقبولة مستحسنه

بأنه وهو فى دون ذلك السن ألف فى أصعب من ذلك المقام .
وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الافرنج .

وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلمنا تماما عدة أمور ،
واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيرا من
الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فان هذه عندهم هى
أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف
علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولا بد له من درجات
معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقاء ،
ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم
علماء فى الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ،
وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية ،
التي من جملتها علم الاحكام والسياسات .

ومعرفة العلماء فى فروع الديانة النصرانية هينة جدا ، فاذا

(١) فى الأصل (هذا) .

(٢) تورك : اعتمد .

قبيل في فرنسا : هذا الانسان عالم لا يفهم منه أنه عالم في دينه ، بل انه يعرف علما من العلوم الأخر [ي] ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصرارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا ، عن كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بنى أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية ، وبعض العقلية كعلوم العربية ، والمنطق ، ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهي دائما في الزيادة فانها لا تمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا ، فانهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسائل ، أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا ان شاء الله تعالى .

ومما يستغرب : أن في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشبهة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، مزاجهم كالعرب في الغزل بالأشعار الحربية . وقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبيته بقوله :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى والنقع ليل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضة وأنا وأنت بظله ننتنعم

وقول الأخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها برقت كسارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت

برشقة من نبال الأعين النجل (١)

(١) عن نجلاء : واسعة جميلة .

ولا أمّاب صفاح البيض تسعدنى
باللمح من خلل الأستار فى الكلل (١)
ولا أحل بغزلان تغازلنى
ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل (٢)

ولنذكر لك مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن
الكتب ، ونحو ذلك لتعرف به مزية الافرنج على غيرهم .

فمن خزائن الكتب : الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما أمكن
الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان بأى لغة كانت ،
مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف
مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزانة التى يندر
وجودها بمصر أو غيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبداً ، ثم
ان المصاحف التى عند فرنساوية فى خزائنهم غير مهانة ، بل هى
مصونة غاية الصون ، وان كان علم اهانتها حاصلًا غير مقصود ،
غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم
أو يترجمه أو نحو ذلك . وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة
« باريس » ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى
اختارها للترجمة ثم ترجمها ، وضم إليها قواعد الاسلام ، وبعض
شعبه ، وقال فى كتابه : انه يظهر له أن دين الاسلام هو أصفى
الأديان ، وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان .

ومن خزائن الكتب : الخزانة المسماة خزانة « مسيو » وتسمى
خزانة « الأرسنال » (٣) ومعنى « أرسنال » (ترسانة) وهى أعظم
الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتى ألف مجلد

(١) الغيل . الشجر الكثير الملق ، والغل : جمع غيلة ، وهى القتل خدعة .

(٢) الكلل : جمع كلة ، وهى الستر الرقيق .

مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ
وأشعار ، خصوصا الأشعار الإيطالية .

ومنها : خزانة « مزارينه (١) » ، وفيها خمسة وتسعون ألف
مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة .

ومنها : خزانة « الأنسطيوط (٢) » أى دار العلوم ، وفيها
خمسون ألف مجلد .

ومنها : خزانة المدينة ، وهى نحو ستة عشر ألف مجلد ، وهى
دائما فى الزيادة ، وكتبها آداب .

ومنها : خزانة بستان النباتات (٣) ، وفيها عشرة آلاف مجلد ،
فى العلوم وفيها خزانة الرصد السلطاني ، وفيها كتب
علم الهيئة .

ومنها : خزانة مكتب الحكمة . ومنها خزانة « أكدمه (٤)
الفرنسييس » وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد ، وكل هذه خزائن
موقوفة .

وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدا : فمنها ما يشتمل على
خمسين ألف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد
فى كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد . وأكثرها فى الغالب خمسون
ألف مجلد . وقد تنيف عن ذلك ولا حاجة لتسميتها هنا .

ولكل انسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على
قدر حاله ، ويندر وجود انسان « ببائيس » من غير أن يكون تحت

Mazarine.	(١)
Bibliothèque de L'Institut.	(٢)
La Bibliothèque du Jardin des plantes.	(٣)
Bibliothèque de L'Académie Française.	(٤)

ملكه شيء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة .
وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى
آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغربية التي تتعلق بالفنون ،
كالأحجار التي ييحت عنها علم المعادن ونحو ذلك ، ففي « باريس »
كثير من الخزائن التي يقال لها « خزائن المستغربات » (١) ، فيوجد
بها ما تنتشوق اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص في
الطبيعيات كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة
الجنة ، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التي
فيها آثار القدماء .

وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الانسان يدرس ما يراه في الكتب
ويقابله ، فان رأى في كتاب تعريف حجر كذا ، وحيوان كذا . وكان
الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة في الكتب ،
وأنتفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة « باريس » البستان
السلطاني المسمى « بستان النباتات » وفيه سائر ما يعرفه البشر
من الأمور الخارجة من الأرض الغربية ، ويزرع بأرضه سائر النباتات
الأهلية التي يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع
طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ويقابلون ما في الكتاب على
ما يرونه ، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه
في نحو ورقة ، ويكتبون اسمه وخاصيته . وفيه أيضا سائر مراتب
الحيوانات الحية غريبة أو أهلية برية أو وحشية ، فيوجد بها نحو
الدب الأبيض والأسود ، والسبع ، والضبع ، والنمورة والسنانير
الغريبة ، والابل ، والجواميس ، وغنم بلاد التبت ، وزرافة سنار ،
وفيلة الهند ، وغزلان البربر ، والأيل ، وبقر الوحش ، وأنواع
القردة ، والثعالب ، وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم .
وسائر هذه الحيوانات التي تراها حية بهذا البستان تراها

(١) يريد الطب البيطري . "Les musées"

مدينة أيضاً محشوة بالتبن ، يراها الانسان على صورة الحية ، كبو
البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادى مصر .

ويوجد فى هذا البستان اوراق مملوءة بالمعادن النفيسة ،
وسائر الأحجار سواء كانت (غشيمة) (١) أو طبيعية ، فترى فيها
مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها ، ففيها
كثير من الأشياء التى لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية كحيوانات
بلاد أمريكية أو نباتها وأحجارها .

وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة أو الأنموذج
من كل شيء ، ومكتوب على كل شيء اسمه باللغة الفرنسية ، أو
اللاتينية . مثلاً فى القاعة التى فيها سبع مكتوب عليها اسم السبع
باللغة الفرنسية وهو « ليون » وهكذا .

ومما وقع فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد
مرض ، فدخل حارسه ، ومعه كلب فقرب الكلب من الأسد ، ولحس
جرحه فبرىء الجرح ، فحصلت الألفة بين الأسد والكلب ، ودخلت
محببة الكلب فى قلب الأسد فصار الكلب يتردد دائماً على الأسد ،
ويتملق اليه ، ويراه كأنه من أصحابه ، فلما مات الكلب مرض
الأسد لفرقتة ، فوضعوا معه كلباً آخر ، امتحاناً لتطبعه ، فتسلى
به عن الميت ، ولا زال معه .

وفى بستان النبات رواق يسمى « رواق التشريح » وفيه جميع
« المواى » أى الجثث المحنطة المصبرة ونحوها من الجثث .

ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان
الحلبى الذى استشهد بقتله للجنترال الفرنساوى « كليبر » وقتل

(١) غشيمة أى غفلا ، خاما .

الفرنساوية له فى أيام تغلبهم على مصر ، ولا حول ولا قوة الا بالله
العلى العظيم .

ومن محال العلوم الفلكية « الرصد السلطانى » (١) بمدينة
« باريس » وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا ، وذلك
أنه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد أو الخشب فى مادته ،
وهو على شكل مسدس الأسطحة المتوازية القائمة الزوايا ، موجه
الضلوع الأربعة الى الجهات الأربع : الشرق ، والغرب ، والشمال ،
والجنوب . وفى طرف الجهة الجنوبية صومعتان متمنتتا الزوايا ،
وفى طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة وهى باب الرصد ،
وفيه رسم الفرنسيس فى رواق فى الدور الأول خط نصف نهارهم ،
فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين فمن هذا الخط
يحسب الفرنسية درجة الطول ، فينسبون اليه غيره من
الأماكن المغايرة له فى السمى ، وقد أسلفنا ذلك موضحا فى الفصل
الأول من المقالة الثانية ، وارتفاع سطحه ثلاث وثمانون قدما فوق
الأرض ، وهو منقسم الى عدة أروقة مناسبة لبحاجة أشغال الفلك ،
فمن هذه الأروقة ستة لها ممارق مفتوحة قطر كل ممرق ثلاثة أقدام ،
وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على
ما يحتاج الى رصده ، فترى منها النجوم وأنت فى المخادع التى تحت
الأرض ، وفى هذه الأروقة امتحنوا ثقل الأجسام الطبيعية ، وميزان
الهواء . وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قلته آلة تعديل
الرياح المسماة : « الانيمومتر » (٢) بها تقاس قوة الرياح وفيها
طشت يسمى « دن العيار » يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة .

ومخادع هذا الرصد هى داخله فى الأرض التى عمقها يساوى
سمك حيطان الرصد ، والى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران

L'Observatoire Royal.

(١)

Anémomètre.

(٢)

والانعطاف ، كدرج المنارة ، وعدة درجاتها ثلثمائة وستون ، ووظيفة هذه المخادع أنها قد نفيذ الطبائعية والكيمياوية أن يصنعوا بها تجاربهم بأن يجمدوا فيها المائعات ، ويبردوا بها الأجسام ، ليعرفوا مزاج الأهوية ، وفيها رواق يسمى « رواق المناجاة » أو رواق الأسرار وذلك أن فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للأذن ، أى وصوله بالهواء إليها ، وذلك أن بالرواق عمودا يقابله عمود آخر ، فاذا وضع الانسان فمه على العمود ، وأسر بكلام فانه يسمعه الانسان الذى بالعمود الآخر ، ولا يسمعه من يقرب منه ، وهذه الأمور يفهمها من له المام بخاصية الصوت .

ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له : « الكنسر ونواتز » (بضم الكاف ، وسكون النون ، وكسر السين ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وسكون الناء) كلمة فرنساوية معناها المخزن أو المحفظ ، أو نحو ذلك ، وفى هذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها ، خصوصا الآلات الهندسية ، كآلات الحيل ، وتحريك الأثقال ، ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن ، وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص بحد عجب .
ثم انه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع ، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة يعنى علم الطب ولهم فيها مدارس كثيرة .

ولندكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول : ان العلماء فى مدينة « باريس » لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة ، فمنها ما يسمى : « أكدمية » ، ومنها ما يسمى : مجمعا أو مجلسا ، « الأنسغليطوت » عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع « الأكدميات » أى المجالس الخمس ، وهى : « أكدمية » اللغة الفرنساوية و « أكدمية » العلوم الأدبية ، ومعرفة الأخبار والآثار ، و « أكدمية » العلوم الطبيعية والهندسية ، و « أكدمية » الصنائع

الظريفة (١) ، و « أكاديمية » الفلسفة . وقولنا « أكاديمية » أو « أكدمة » أو « قدمة » هو لفظ مأخوذ من اسم مكان فى مدينة « أثينا » كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء : « الأكاديميون » وكان يقال لهذا المكان « أكدمية » لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه : « أكدمس » ، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة « أثينا » ، وصيروه بستانا يتماشون فيه ، ويتفرجون ، فكان يدرس فيه أفلاطون ، ومنه قيل لجماعة أفلاطون « أكدميون » ويقال لهم « أفلاطونيون » وهم مشهورون أيضا فى كتب العربية بالاشراقين (بالقاف ، والفاء) ويقال لهم أيضا الهيون ، ويطلق « أكدميون » الآن عند الفرنساوية فيفهم منه بمجرد اطلاقه أهل أكدمة الفرنسييس ، وهم كبار علماء الفرنساوية ، فاذا قيد فالعنى ظاهر كما اذا قيل : « أكدمة مصر » ، فالمراد بها الجامع الأزهر ، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر .

فأول علماء « باريس » بل وعلماء فرنسا ديوان العلوم المسمى : « أكدمة الفرنسييس » وأهلها أربعون عالما ، كل واحد من الأربعين يسمى : عضوا ، يعنى أن هذا الديوان بأربابه كالبدن ، وكل واحد كالعضو منه ، وفى الغالب أن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية ، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وأنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ . وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسييس قد بلغ درجة عالية فى العلوم ، وصلح لأن يكون من أرباب هذه « الأكدمة » بذل واحد من أربابها مات ، وكان هذا العالم كثير المجون ، فتوقفوا فى قبوله فى هذا الديوان ، فما كانت حيلته الا أنه كان دائما يعرض بهجو أهلها . فمن نوادر وقائعه : أنه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه على هذه « الأكدمة » فتحدث مع أصحابه ، فتذكروا فى فضل

علماء « أكدمة » فقال : لا شك أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة ، يشير بذلك الى بعض الأمثلة (١) الفرنسية ، من قولهم فى مدح الانسان : ان له عقلا كعقل أربعة ومشيرا الى أن عقل كل عشرة منهم كعقل واحد ، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك .

ومن نوادره : أنه كتب قبل موته كعادة الفرنسية على رخامة قبره المهيأ له بيت شعر باللسان الفرنسية يقول فيه ما معناه بالعربية :

ها قبر من لم يك شيئا أيه كلا ولا من علما أكدمه
ومعناه : هذا قبر من لم يصل الى درجة أياما كانت حتى
لو بلغت هذه الدرجة فى الحقارة درجة هؤلاء العلماء .

وهناك أكدمة سسمى « أكدمة تقييد الفنون الأدبية » وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا ، ووظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة ، وبآثار القدماء خصوصا بالمباني الغربية ، وبالعلوم الأدبية وبعوائد الأمم وأخلاقها ، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنسية بما خلقت عنه ، مما هو فى كتب علوم اللغات الغربية ، كاللاتينية ، والعربية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية ، واليونانية ، والعبرانية ، والقبطية وغيرها .

ومن الأكدمات الأكدمة المسماة « أكدمة العلوم السلطانية » وأهلها منقسمون أحد عشر قسما ، لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثني عشر فرعا : فأهل القسم الأول : يشتغلون بالرياضيات ، كالهندسة والحساب : وأهل القسم الثانى بعلوم الحيل كعلم جر الأتقال ونحوه ، والثالث : بالعلوم الفلكية ، والرابع : بالعلوم الجغرافية ، والعلوم التجريبية ، والخامس :

(١) يريد الأمثال .

ومنها : جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون باجادة الخط .
ومنها جمعية تسمى : جمعية المغناطيسية الحيوانية ، وهي
جماعة تقول : بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان .

ومنها : جمعية « حفظة آثار القدماء » ، وهي جمعية معدة
لحفظ سائر ما يوجد من الآثار الباهرة عند القدماء ك بعض
مبانيهم ، ومومياعهم ، وملبسهم ونحو ذلك ، والبحث عن ذلك :
لبوصل به الى دراسة عوائدهم فى ذلك يوجد كثير من
الأمور النفسى المأخوذة من بلاد مصر ، كالحجر المصور عليه فلك
البروج المأخوذ من « دندرة » فان الفرنساوية يوصلون به الى
معرفة الفلك على مذهب قدماء أهل مصر ، فان مثل ذلك يأخونه
بغير شئ الا أنهم يعرفون مقامه ، فيحفظونه ، ويستخرجون منه
نائج شتى ، ومنافع عامة .

ومنها : مكتبة تسمى « مكتبة الأطوال » ، وأهلها اثنا عشر :
ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغرافى ،
فبستغلون بعلم الهيئة ، وتأليف (الرزنامات) السنوية ، وتحرير
الزيجات (١) ، وذكر أطوال البلاد .

ومنها : الجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وتحرير توفير
المصاريف البرانية والجوانية وأهل هذه علماء ، أغنياؤهم يعطون
الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا .

ومنها جمعية لتحسين الأصواف ، ووظيفة أهلها مباشرة
ما يتعلق بالغنم .

ومنها : جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة فى
الفنون والصنائع ، وهي تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ،

(١) العاويم .

لغة الفرنسييس ، واذا اخترع الانسان معنى غريبا ، أو أجاب عن سؤال غريب أو قال شعرا مقبولا ، فانهم يعطونه جائزة ذلك .

ومنها : جمعية تسمى « حسن الدروس » ووظيفتها تعليم الآداب القائلية ، والدين القائلية .

ومنها : جمعية تسمى « أكدمة ابناء أبلون » يعنى الأدباء ، وهى مجلس أرباب الفنون الأدبية .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الآسيائية » (١) يعنى فى لغات أهل آسيا ، أو اللغات المشرقية ، ووظيفتها تحصيل كتبها الغربية ، وترجمتها الى الفرنسية ، أو طبعها لتشتهر .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الجغرافية » وهى معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهى تقوى الناس على السفر الى البلاد المجهولة الأحوال ، فاذا سافر فيها انسان ورجع يطلبون منه سائر ما علقه عليها ، فتأخذ ما علقه وتقيده وتدخله فى كتب الجغرافيا ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنسية دائما يأخذ فى الكمال . وبالجملة : فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا ، كطبع (الخرطات) ونحوها .

ومنها : الجمعية « الغرماتيقية » يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنسية فان علم النحو يسمى فى اللسان الفرنسية « الأغمير » وباللاطينية والايطالية « أغرماتيقا » ووظيفة هذه الجمعية : الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات ، أو ابقاء الاصطلاحات القديمة ، لأن اللسان الفرنسية لسان غير قار القواعد كتابة وقراءة .

ومنها : جمعية تسمى « جمعية المولعين بالكتب الخزائنية » ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة .

فاذا اقترح انسان شيئاً نافعا أخذ من أهل هذه الجمعية نعمة عظيمة وشهرة .

وفى باريس مدارس سلطانية تسمى : « الكوليج » (١)
(بضم الكاف ، وفتح اللام ، وسكون الباء) وهى مدارس يعلم فيها الانسان العلوم المهمة التى تكون وسائل فى الأمور المقصوده منها ، وهى خمسة (كوليجات) يدرس فيها صناعة الانشاء ، والنأليف ، والألسن القديمة الغريبة . والعلوم الرياضيات ، وعلم التاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، وأصول الطبيعات ، يعنى كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم ، وعلم الخط وفيها مراتب للطلبة ، فان الانسان يسلك فيها فى العادة مرتبة كل سنة ، وفى كل سنة من ست سنين يخرج الانسان من مرتبة الى أعلى ، فهى بالتترقى ، لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن للانسان أن يعدى أبدا [مرتبه] .
وهناك (كوليجان) آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد فى (الكوليجات) الخمسة السابقة ، وفيها (كوليچ) آخر يسمى (كوليچ الفرنساوية السلطاني) وهو أعظم جميعها فيتعلم فيه الرياضيات ، والطبغة المخلوطة بالحساب ، والطبغة العملية ، والهيئة ، والطب ، والتشريح العمليان ، وفيه تعلم اللغات : كالعربية والفارسية ، والتركية ، والعبرانية ، والسريانية ، والهندسة ، ولغة أهل الصين ، وعلومهم ، ولغة التنار ، والحكمة اليونانية التى هى فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة فى اللسان اللاتينى ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية . وهذا (الكوليچ) يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب ، ومن أشهر المدارس : مدرسة « بوليتقنقا » (٢) (بضم الباء وكسر اللام ، وسكون الياء والقاف ، وكسر التاء والنون ، وسكون الباء) .

Collège.

(١)

L'École Polytechnique.

(٢)

بمعنى مدرسة كليات العلوم ، وفيه يدرس الرياضيات ، والطبيعيات ،
لتربية مهندسين فى علم الجغرافيا ، وفى العسكرية ، فمهندسو
الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان ،
وكل آلات الحيل ورفع الأثقال . وأما مهندسو العلوم العسكرية ،
فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ، والتوقى من ضرر الأعداء ،
واتخاذ العراضى ، وهندسة تسييب البارود . وأرباب هذه المدرسة
محققون ، لهم باع فى سائر العلوم ، ويكفى فى فضل الانسان أن
يكون من نلاميذها .

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الفروع الفقهية » فيدرسون
فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها .

ومنها : مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ، فيدرس فيه
الذكور والانات علم التصوير .

ومنها : مكتب الغناء السلطاني فيتعلم فيه أيضا الذكور
والانات علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسى .

ومنها : مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات ، لتكون
وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب ، والهندسة ، والقياس ،
ونحاتة الحجر والخشب ، وعلم المساحة ، وتصوير البهيمة ،
والآدمى ، والأزهار وأنواع الزينة .

ومنها : مكتب القناطر والجسور : وفيه يتعلم هندسة الطرق
والخلجان والأرصفة .

ومنها : مكتب سلطاني لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط
كتشف المعادن واستخراجها .

ومنها : مدرسة الفنون والحرف يتعلم فيهما علما الكيمياء
والهندسة الداخلان فى الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات
الصنائع الموجودة الى هذا العصر .

ومنها : مكتب يسمى : مكتب اللغات المشرقية المستعملة ،
وفيه يتعلم الفارسي والملاباري والعربية الأصلية والدارجة ولغة
النرك والأرمن والروم .

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الأريغولوجى » (١) (يفتح الهمزة
وسكون الراء وكسر اللام ، وسكون الياء ، وضم الغين واللام
وكسر الغين الأخيرة) يعنى تفسير الكلمات المكتوبة من قديم
الزمان فى اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات
المكتوبة فى الأزمنة السالفة والأحجار المنقوشة ، وترجمة الهياكل
القديمة المكتوبة .

ومنها : مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ،
ونحو ذلك .

ومنها : مكتب سلطانى للموسيقى والانشاء ، والخطابة ، وفيه
يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية ، من الذكور والانات ، وأهل
التعلم به أربعمائة نفس .

ومنها : مدرسة بستان السلطان ، الشى هى بستان النباتات ،
وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة فروع . كعلم الحشائس ،
والطبيعات ، والكيميا ، والمعادن ، والتشريح ، والمقابلة بين أجزاء
بدن الآدمى والبهيمة .

ومنها : مكتب يسمى « مكتب البسننجية » (٢) وفيه يتعلم
علم زراعة الشجر ، وحفظه من البرد وتطبيع (٣) النباتات الغربية
المنقولة على اقليم المحل الذى نقلت اليه .

L'Ecole de L'archéologie.

(١)

(٢) البسحة : البستانيى - يريد علم فلاحه البسانى .

(٣) التطبيع : جعلها تنطبع بحالة الافليم الحديد .

ومنها : مكتب تعليم الأشجار غير المسمرة لاجراج ثمرها .
ومنها : مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر في
بلاد ليميز نباتها ومعدها .

ومنها : مكتب يسمى : « طب البهائم » (١) ، وفيه يتعلم
نطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المريضة ، وفيه مدرسة
كيمياء ، ومدرسة لعلم الطبيعة ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ،
ومكتب للفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم ، معدة لنجربة
اختلاف أصناف البهائم وأصولها ، فبطلقون فيه صفا منلا من الخيل
على صنف آخر ، كحصان عربى على حجرة (٢) أندلسية ليتولد
منها صنف آخر .

ومنها : مكتب الصم البكم ، وهو موقوف على مائة نفس ،
ويدخلون فيه من احدى عشرة الى ست عشرة ، فبتعلم فيه القراءة
والكتابة ، والحساب واللسان ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وصنعة
من الصنائع . وفي هذا المكتب (ورشة) يتعلم فيها علم الطباخة ،
والنقاشة ، والنجارة والخراطة والخياطة ، (والصرمانية) ونحوها .
ومنها : مكتب العميان السلطاني ، وهو موقوف على جملة
محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شئ مكتوب لهم كتابة
مخصوصة فيمسونها باليد ، ويتعلمون أيضا علم الجغرافيا ، على
خرطاط مخصوصة أيضا ، ويتعلمون التاريخ واللغات ، والرياضيات ،
والموسيقى بالصوت وبالآلة ، وغير ذلك من الحرف كمشغل الجرابات
ونحوه .

وغير ما ذكرنا يوجد أيضا عدة مدارس .
ويوجد في « باريس » أيضا مكاتب تسمى : « البنسيونات »

(١) يريد الطب البيطرى .

(٢) الحجرة سر الحاء . الأثنى من الخيل .

جمع « بنسيون » (بفتح الباء وسكون النون ، وكسر السين ،
وضم المنناة التحتية ، وسكون الواو) وهى مكاتب يتعلم فيها
الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب ، والهندسة .
وغيرها ، كالتاريخ ، والجغرافيا ، وهى نحو مائة وخمسين
(بنسيونا) وفيها أكل الانسان ، وشربه ، ونومه ، وغسل ثيابه ،
ونحو ذلك ، فيدفع أهالى الأولاد قدرا معلوما فى السنة .

وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت صاحبها عالما ، فيأخذ
عنده عدة أولاد ، ليأكلوا معه ، ويشربوا معه ، ويعلمهم بنفسه ،
أو يحضر لهم معلمين عنده .

وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعلم فى البيت
كل يوم ليعلمهم عنده .

ومن الأشياء التى يستفيد منها الانسان كثير الفوائد الشاردة
التذاكر اليومية المسماة « الجرنالات » (١) ، جمع « جرنال » وهو
يجمع اللغة الفرنسية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ،
وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، ونشر فى المدينة
وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر « باريس » يرتبونها كل يوم ،
وكذلك سائر القهاوى . وهذه « الجرنالات » مأذون فيها لسائر
أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتسنقبح ما تراه
حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية
تامة ، ما لم تضر بذلك ، فانه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضى .

« والجرنو » عصب ، فكل جماعة لها فى رأيها مذهب كل
يوم تقويه وتحاميه ، وتؤيده . ولا يوجد فى الدنيا أكذب من
« الجرنالات » أبدا خصوصا عند الفرنسيين الذين لا يتحاشون
الكذب الا من حيث كونه عيبا .

وبالجملة فكتاب « الجرنو » أسوأ حالا من الشعراء عند
تحاملهم أو محبتهم .

« والجرنالات » مختلفة الأنواع والأصناف . فمنها ما هو معد
لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيين وخارجها . ومنها ما هو
مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات وما هو للطب ،
ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره .

والجرنال الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف
نسخة ، وكل جرنال تكرر نسخه على حسب رغبة الناس . وأرباب
« الجرنو » يعرفون الأخبار الغربية قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات
مع سائر البلاد ، وهم في الواقع كخطباء الأمة يتعرضون للمدح
والذم ، والاستحسان والاستنقاج ، والتحسين والتقييح ،
والاغراء والتحذير ، الى غير ذلك . وقبلهم في ذلك المؤلفون ،
وربما اتخذ المؤلفون خطابات أرباب « الكازيطات » (١) ،
مادة لهم وأعلى درجة منهم أرباب الخطابات بالجمعيات العمومية
الذين هم من أعضاء المجالس ، وهم أعلى طبقة في الاعتبار من
الشعراء ، فاذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب في قديم الزمان ،
فقد قال أبو عمرو بن العلاء ما نصه : كان الشاعر في الجاهلية
يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر ، الذي يقيد عليهم
مآثرهم (٢) ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ، ومن غزاهم ،
ويهبب (٣) من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهاجمهم شاعر
غيرهم ، فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا
الشعر مكسبه ورحلوا الى السوق، وتشرعوا (٤) الى أعراض الناس صار

-
- (١) الكازيطات Gazettes هي الصحف .
(٢) في الأصل : باثرهم - بحرف .
(٣) هبب الى فلان : جعله مهيبا عنده .
(٤) يريد : اتخذوا الى أعراض الناس طريقا .

الخطيب عندهم فوق الشاعر . ولذلك قال الأول : الشعر أدنى مروءة السرى (١) وأسرى (٢) مروءة الدنى ، ولقد وضع (٣) قول الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان فى الدهر الأول ما زاده الارتفاع .

ومن جملة علوم « باريس » الدفاتر السنوية ، والنقويصات الجديدة ، والزيجات (٤) المصححة ، ونحو ذلك . فكل سنة يظهر فيها كثير من (الروزنامات) المشتملة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون ، وعلى كثير من أمور الدولة ، وعلى تسمية أكابر الدنيا ، وتسمية أعيان فرنسا ، وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فإذا احتاج الانسان الى اسم واحد ، والى بيته راجع فى ذلك الكتاب .

وفى « باريس » (أوض) القراءة أو خلوات القراءة ، فيذهب الانسان فيها ، ويدفع قدرا معلوما ، ويقرأ سائر « الجرنالات » وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذها عنده ويرجعه .

ومما يبهز العقول فى باريس دكاكين الكتبة وخاناتهم ، وتجارات الكتب، فانها من التجارات الرائجة مع كثرتها وكثرة المطابع ، وكثرة التأليف التى تنطبع كل سنة فانها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا الفع، ولا تمر سنة بمدينة «باريس» الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغى أن يمدحوا به ، قال الشاعر :

(١) السرى : صاحب الشرف والمروءة .

(٢) أسرى : أشرف .

(٣) وضع من فلان : حط من قدره .

(٤) الزيجات : التعاويم .

إذا شئت أن تحظى من الكتب كلها
بأطيب مروى وأحسن مسموع
فطالع مجاميع الدفاتر ، انها
نفرق من هم الفتى كل مجموع
وقال آخر :

اجعل جليسيك دفترًا في نشره
ومفيد (١) آداب، ومؤنس وحسنه
ليريك من حكم الزمان نشورا
وإذا انفردت فصاحبا وسميرا
وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة « باريس » مع تفصيل علومها
ووفنونها ، الا أنه يمكن التعبير عن ذلك اجمالا كما ذكرنا .

(١) الأصل : « معيد » وهو تحريف .

المقالة الرابعة

فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة
لتحصيل غرض الوالى : وفى تدبير استغال الزمن فى القراءة والكتابة
وغيرهما ، وفى المصاريف الواسعة الخارجة من طرف الوالى ، وفى
عدة مراسلات بنى وبين بعض خواص الافرنج تتعلق بالتعلم •
وفى ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة « باريس » •

ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم العنون ليس سهلا ، وأنه لا بد
لطالب المعارف من افتتاح الأخطار ، لبلوغ الأوطار ، فى تلك
الأقطار •

قال الشاعر :

دعيني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا فى الصعب ، والسهل فى السهل
تريدين ادراك المعالى رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وقال آخر وهو من الكلام الجامع :

من كان يعلم أن الشهد راحته فلا يخاف للذغ النحل من ألم
وقال آخر أيضا :

ان الفضائل بالأخطار مولعة وان أراك الهوى منه الهوان فقل
فابغ الفضائل وابذل جهدك النمنا حكم المنية فى حب الحبيب منى

الفصل الأول

(فيما حصل لنا فى أول الأمر من الترتيب فى القراءة

والكتابة وغيرهما)

من عادة أهل « باريس » أنهم فى التعليم يبتدئون بتعليم الانسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبتها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال ، فهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات ، وينطق بها كما ينبغي ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ، ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل ، تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى قرأناه : هذه فرس لها أربع أرجل ، والطيور ليس لها الا رجلان ، لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فانه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الرضع (١) فى قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصا التى تتعلق الصغار باللعب بها : من العصافير ، والطيور ، والسنائير ، ونحو ذلك ، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار : وطاعتهم للوالدين ونحو

(١) يقول علماء الوضع : ان الكلمات انما أفادت معانيها بوضعها لهذه المعانى .

ذلك ، ثم نبذة فى علم الحساب ، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدءون فى قراءة كتاب أهم منه .

وفى كتاب النحو الفرنساوى وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الانسان ، فان الانسان يتعلم فى النهار عدة أمور مختلفة ، فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنساوى، ثم بعده درس تقويم البلدان ، ودرسا مع معلم الخط لتعليم قواعد الكتابة : الى آخره . وقد أسلفنا ذلك .

ولما كانت آمال التوالى متعلقة بتعلمنا عاجلا ، ورجوعنا الى أوطاننا ابتدأنا فى « مرسيليا » قبل وصولنا الى « باريس » وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى ، ثم لما ذهبنا الى « باريس » مكثنا جميعا فى بيت واحد ، وابتدأنا فى القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو : أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين : ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومعاورات باللغة الفرنساوية : ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة . وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى درسين : يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ، ثم انتهى الأمر الى أننا تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل تشبغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ، وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية ، وفى هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية الا مجرد تعلم النحو الفرنساوى ، ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين ، أو ثلاثة : أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ، فى نظير الأكل والشرب والسكنى . والتعليم وتعهده أمورنا : من غسل ، ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٧ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3370 — I

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقه خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو امنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد اطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسلمين العزل ، مسلمين وأقباطا .

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهم واحتوائهم ، تمهيدا لاقتلاعهم تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بيت المدنى المصريين هذه السلسلة للوقوف امام هذه الظاهرة بالفكر المستنير والحق الشريفة .

